أسرار مصر الخفية

نقد الحركات التبشيرية والرؤية الاستشراقية

عن مصر والإسلام

تأليف:

سيمون هنري ليدر

ترجمة وتقديم:

محمد مصطفى الساكت

دار زحمة كتاب للثقافة والنشر



اسم الكتاب: أسرار مِصر الخفية

اسم المؤلف: سيمون هنري ليدر

ترجمة وتقديم: محمد مصطفى الساكت

رقم الإيداع: 26483/ 2021

الترقيم الدولي: 978-977-835-272-6

هذه ترجمة كاملة لكتاب: Veiled Mysteries of Egypt

تأليف: Simon Henry Leeder

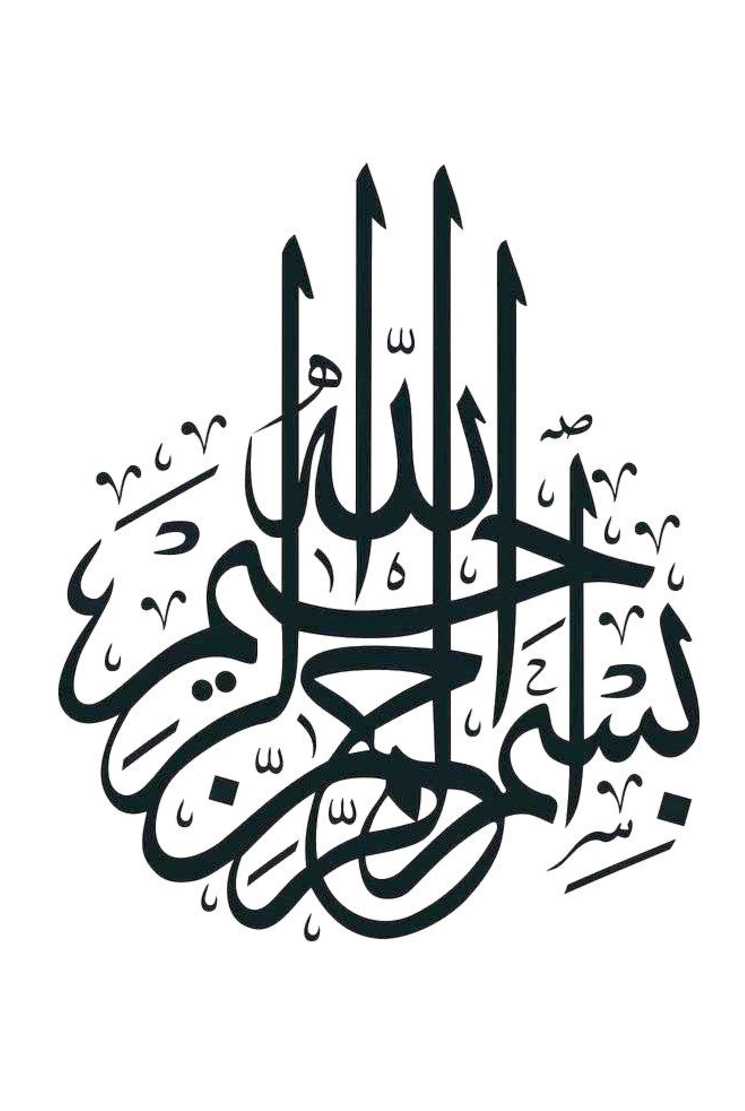
الصادر عن: Charles Scribner’s Sons, New York, 1913

العنوان: ١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – القاهرة

الفيسبوك: دار زحمة كتاب للنشر

التليفون: 00201100662595 / 00201205100596

البريد الإلكتروني: za7ma.kotab@gmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم المترجم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على كحيل العينين وصخرة الكونين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرًا (صلى الله عليه وآله وسلم)

(١) نظرة عامة:

شَنَّ العديدُ من المستشرقين هجومًا شنيعًا على دين الإسلام وعلى المسلمين من غير مبرر وجيه أو منطق سويٍّ، بل دون أن يُكلِّفوا أنفسهم عناء البحث العلمي وتعلم اللغة العربية أيضًا! وهذا ساطعٌ كالشمس في كبد السماء كما جاء في كتاب عالِمٍ إنجليزي مسلم (الجانب الثقافي في الإسلام) [١] حين رسخت ظلمة الجهل في عقول الأوروبيين والغرب والمستشرقين، فأقتبسُ من الكتاب طيفًا من معتقداتهم وإيمانهم تجاه غير المسيحيين:

(والأمر المثير حقًا أن مسيحييَّ الغرب لم يكونوا على معرفة أو دراية بعقيدة المسلمين مطلقًا، ولم يلقوا لذلك بالًا، حتى وقت قدوم الموسوعيين في القرن الثامن عشر الميلادي. ولم يَسْعَ مسيحيو الغرب إلى معرفة وجهة نظر مسيحيي الشرق، وفيما يتعلق بهم من فِكر وعقيدة، ولذلك؛ انقسمتْ المسيحية إلى مسيحية شرقية ومسيحية غربية).

وجاء فيه أيضًا:

(قد كانت نظرة العالَم المسيحي لغيره مشحونة باللعن وعدم أحقيته في الحياة، لكن كانت – ولا تزال – نظرة الإسلام لغيره مشحونة بالاحترام وأحقية الآخر أن يعيش في سلام. وكان هناك ثمة فئة من المسيحيين كانت الرحمة والرأفة قد مَسَّتْ قلوبهم وعقولهم، فاعتقدوا أنه من المؤسف والمُحزِن أن يُدان أي شخص إلى الأبد، كما أنهم نظروا إلى مَن هو خارج عالَمهم

---

(١) النسخة الإنجليزية الأصلية بعنوان: (The Cultural Side of Islam) من تأليف: محمد مارماديوك بيكثال (Muhammad Marmaduke Pickthall)، وصدرت الترجمة العربية الأولى عن دار زحمة كُتَّاب للنشر والتوزيع سنة ٢٠٢١.

المسيحي نظرة بها شفقة، وأنه يجب إنقاذهم بالطريقة التي يعرفونها؛ أي أنه على المسيحيين أن يُقْنِعوا المسلمين بالعقيدة المسيحية. ويمكنكم الرجوع إلى رسالة القديس فرنسيس، قديس مدينة أسيزي الإيطالية، للمسلمين التي توضح الخلاف بين وجهتي النظر. وكذلك الحال بالنسبة لتاريخ الحملة الصليبية التي شنَّها القديس لويس على مصر، والتي كان هدفها الرئيس هو تحويل المسلمين إلى المسيحية. يوجد شرح لهذه النقطة المهمة للغاية في سجلات (جمعية الأصدقاء الدينية)، والتي يُطلَق عليها عادةً (الكويكرز Quakers)، كتبَ هذا المقال مابل برايلسفورد Mabel Brailsford في جريدة الغارديان البريطانية في نوفمبر ١٩١٢م).

بل جاء فيه عن مدى جهل الأوروبيين المحدق الضارب في أعماق الظلام:

(كان ينظر كل شاعر في العالَم المسيحي أن [المُحَمَّديَّ] كافرٌ ومشركٌ، وأنه يعبد ثلاثة من الآلهة، وهي كالآتي بالترتيب: الأول [مُحَمِّت Mohamet أو مُحَمَّد Muhammad أو مَحُند Mahound]، والثاني [أَبُولِّيُون Apollyon]، والثالث [تِرماغنت Termagant] ...).

فالهدف الأعظم وراء هذا الهجوم معلوم قديمًا، وهو الهدف الذي ما يستأنفه أولئك الذين يُطْلِقُون على أنفسهم الآن (مفكرين) أو (تنويريين) أو (فلاسفة العرب)، أو (باحثين في التراث الإسلامي)، أو (حداثيين) أو غيرها من الألقاب الرنَّانة. لكنهم – في الحقيقة – ليسوا على قدم المساواة، وليسوا متفقين على مشرب واحد؛ بل مشارب متعددة: منها المشرب الكريم، ومنها المشرب الذميم. والمشرب الكريم (هو المطلوب؛ لأنه الوحيد المُؤَهَّل للجلوس على مائدة النقاش والبحث العلمي)، والمشرب الذميم: المتطرف الأهوج، والجاهل جهلًا مُركبًا يُحَرِّكَه هواه المحض (هما المشار إليهما هنا في التقديم). والأخير يشمل على الذين اتخذوا أقوال المستشرقين حُجَّةً، واعتمدوا عليها اعتمادًا كليًّا أو جزئيًّا، سواء أكان ذلك علنًا أو سرًّا. فكأن

المؤلف يشير إلى أن المستشرقين قديمًا وهؤلاء حديثًا – كما لو كان حيًّا الآن – تجمعهم قاعدة عريضة من الجهل التام في (أسرار مصر الخفية).

وأضربُ مثالًا يُعْلِنُ عن نفسه إعلانًا صارخًا بالجهل المُسْتَحْكَمِ والهوى المُسْتَفْحَلِ: أنه مما صدمني حقًّا ودفعني إلى تغيير نظرتي بالكلية إلى المنهج والآلية التي يتعامل بها الحداثيون والمفكرون وفلاسفة العرب مع لغة النص القرءاني والحديث النبوي، حين قرأتُ الأعمال الكاملة (من النقل إلى العقل)، لم أستطع حصر سقطاته اللغوية والعقلية والمنطقية، والتي تطول بطول مجلدات الكتاب الثلاثة، فوجدتُ فيه ما لا يتخيله عقل، ولا ينطق بها لسانٌ عربيٌّ مبينٌ، من سقطاتٍ في قراءة اللغة العربية، فضلًا عن فَهمها. وكأن مؤلف الكتاب – رحمه الله وغفر له – كان يتصيد أخطاء في الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في صحيح البخاري (تحديدًا) لنفيها عن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بعد أن عرضها على عقله الشخصي، باعتبار أن فَهمه الشخصي هو الفَهم السليم، وأن عقله هو العقل المستقيم، هكذا أراد هو أن يقول.

والسقطات فادحة يستحيل أن يقع فيها طالب علم يدرس اللغة العربية، فضلًا عن كونه أستاذ دكتور جامعي ورئيس قسم وأحد أعلام مُنَظِّرِي تيار اليسار الإسلامي! والغريب أنه يشترك في قاعدة عريضة جدًّا مع التيارات السلفية (رغم نقده فكرهم ونقضه في كتابه) في رمي صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجمهور المسلمين بسهام الشرك والكفر في حق الذين يتوسلون ويتبركون بحضرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبآثاره الشريفة، ويروج لهذا القول الفاسد في كتابه، وهو لا يعلم أن جماهير أهل السُّنة والجماعة يتبركون ويتوسلون. حينها قلتُ في نفسي: وكيف لا أُصْدَمُ وأن حقيقةَ هذا المنهج أَمَرُّ من مرارة العَلْقَم؛ بل أشد من المستشرقين والملاحدة على الإسلام لأنهم يتكلمون بلسان مسلم.

فأخطاؤهم اللُّغوية والعلمية كارثية تُنبِئ عن تشويه متعمد أو أجندة خاصة يعملون على تنفيذها، فالأمر يتعدى كونه أن فلانًا أخطأ في فَهم نص قرءاني، أو حديث نبوي، بل الأمر كله لا يخرج عن ثلاثة أمور:

(١) إما سيطرة الهوى والجَوى وشهوة المخالفة على النفس البشرية لدى هؤلاء، مما أوقعهم في المهالك الجليَّة التي لا يقع فيها ذو لُبٍّ وتحصيل من ناحية، وتضارب في المنهجية الحداثية التي لم تثمر منهجًا قويًا صحيحًا منذ سنين طويلة من ناحية أخرى؛ بل ولم تثمر البديل عن المنهجية الأزهرية (التي طالما انتقدوها ووصفوها بالجمود والتخلف والكهنوت) قط. وأقولُ إن البديل عندهم هو: الهرمانيوطيقا (التفسيرية) تحل محل التفسير وأصول الفقه، وكذلك التفكيكية، والبنيوية، ... إلى آخره.

(٢) أو أنهم جهلاء حقيقةً حتى ولو نال أحدهم أعلى الدرجات الأكاديمية، فمنهم مَن هو **رئيس قسم كذا بجامعة كذا**، ومنهم **رئيس جامعة كذا**، ومنهم مَن تولى منصب **وزير كذا كالثقافة وغيرها**، أو غير ذلك، حتى ضرب الجهل في أعماقه، فخرجوا لنا به في أبشع صوره، تمامًا بالمثل – وعلى قدم المساواة – كما خرجت لنا الجماعات الإرهابية بأبشع صور الجهل.

(٣) أو أنهم جنود أُعِدُّوا إعدادًا خاصًّا منذ فترة طويلة لتشكيك المسلمين في دينهم، بحيث يكونوا امتدادًا للحركات التبشيرية والرؤية الاستشراقية المتعصبة ضد الإسلام، لكن تحت عنوان: (**الحداثة، والمعاصرة، والتجديد**) وباسم أنهم من أهل الإسلام.

وهنا أذكرُ القاعدة العامة: (إِنَّ اللُّغَةَ والفِكْرَ وجهانٌ لعملةٍ واحدةٍ)، والتي بُحَّ صوت علماء الأزهر الشريف؛ بل وعلماء المسلمين من كافة المعاهد العلمية السُّنيّة العريقة في الوطن العربي والإسلامي، وعلى رأسهم أصحاب الفضيلة: فضيلة الإمام الأكبر شيخ الإسلام والمسلمين أ.د. أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف، وفضيلة مولانا الإمام العلَّامة أ.د. علي جمعة

(مفتي الديار المصرية السابق، وعضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف، وشيخ الطريقة الصديقية الشاذلية) في شرحها وتوضيحها للمتطرفين من الجانبين: الحداثي واليميني. ويكفي كل مهتم بالتراث الإسلامي أن يستمع إلى البيان الختامي لمؤتمر الأزهر العالمي للتجديد في الفكر الإسلامي لسنة ٢٠٢٠ لفضيلة الإمام الأكبر أ.د. أحمد الطيب، قبل أن يلج بقدميه إلى تراث المسلمين ويعبث به.

فإذا كانت اللغة قوية وبلغت مبلغها، فإن الفكر يستقيم حتمًا، وإذا كانت اللغة ضعيفة وهشَّة وبلغت أدنى دركاتها، فإن الفكر ينحرف حتمًا، ولنا في كتاب (من النقل إلى العقل) الأنموذج الصارخ في الانحراف الفكري الناتج عن ضعف اللغة العربية وهشاشتها. **فقد حدث ذلك مع أستاذ دكتور جامعي ورئيس قسم، فما بالكم بمَن هم أدنى درجة علمية!**

❖❖❖

(٢) **نبذة عن الكتاب**:

لا يهدف الكتاب في مجمله إلى تقصِّي نقاط تفصيلية عن مزاعم المستشرقين الأوروبيين، وبالأحرى المستشرق زويمر؛ بل يهدف الكتاب كما قال المؤلف:

(كان السيد صموئيل مارينوس زويمر Samuel Marinus Zwemer، سكرتير حركة المتطوعين في أمريكا، الذي عَمِلَ مُبشِّرًا في شبه الجزيرة العربية، وله أعمال غزيرة مشحونة بادعاءات شعواء وعدم الإنصاف حول الإسلام، ورغم ذلك إلا أن أعماله حَظِيَتْ بقبول واستحسان كَبِيرَين من جانب المقيمين في الغرب. أما من جانب القرَّاء فإنهم قد يكونوا مولعين بالقراءة والمعرفة بسبب التدهور والجهل المُظلم المحيط بهم من كل جانب، وهم بذلك يعتقدون أنهم يساهمون في محو جهلهم أو التقليل منه. في الحقيقة إن هؤلاء الناس ضُلِّلوا حين اعتقدوا أنهم يكتسبون معرفة أو رؤية حقيقية منصفة لحياة المسلمين ودينهم كما وُصِفَا في كتب

المستشرقين المتعصبين المُعادين للإسلام عن جهل مُرَكَّب. حقًّا؛ إنه أمر غريب بالنسبة لي؛ فهؤلاء يتبنون وجهات نظر تفتقر إلى فطنة وبصيرة راسختين؛ لأن الكَاتِبَين السابِقَين يمكنهما الاعتماد كليًّا على قبول القرَّاء واستحسان ما يكتبونه بحُجَّةِ أن الكُتَّابَ المستشرقين يكتبون عن دين الآخرين من أجل فِعل لما فيه الخير والصلاح لهم. وإني لآمل أن يساهم كتابي البسيط هذا – ولو مساهمة قليلة – في النتيجة التي أرغبُ في الحصول عليها بقدر أكبر من الإنصاف والفَهم والإدراك بشكل أفضل لِمَا يُحرك أتباع النبي محمد ويتخذونه مِثَالًا وأنموذجًا يحذون حذوه. وإن عدتي وعتادي لهذا الأمر هو المشاركة الوجدانية، والاندماج التام مع الأفراد الذين قد سعيتُ إلى معرفتهم من خلال الإقامة معهم إقامة طويلة في مصر على نحوٍ استثنائيٍّ، حتى أتمكَّنُ من معرفة ما خَفِي عنَّا نحن المستشرقين، والولوج إلى أسرار هذا الدين السائد هناك).

❁❁❁

(٣) هدف المؤلف:

من هذا المنطلق؛ أخذ المستشرق المسيحي البريطاني سيمون هنري ليدر على عاتقه فك الاشتباك بين المستشرقين الأوروبيين والواقع الذي لم يدرسوه جيدًّا – في مصر على وجه الخصوص – وليبيِّن لعامة الأوروبيين أن كل ما كان يدَّعيه هؤلاء المستشرقين – في عصره – ما هو إلا جهل مركب، ولم يكن ليصدر عن عقلية ومنهجية علميتين حقيقيتين، وأن ما كانوا يكتبوه عن مصر والإسلام ما هو إلا حقد دفين، ويستحيل أن تكون كتاباتهم مصدر معرفة حقيقية لعامة الشعوب الأوروبية، وأن ما كتبوه عن دين الآخرين يهدف إلى الشر لا إلى الخير، وإلى الطلاح لا إلى الصلاح.

ففي كتابنا الذي بين أيدينا (أسرار مصر الخفية) يتجولُ المؤلفُ في قرى مصر الريفية ومُدُنِها، ويحكي عما شاهده بعينيه عن الحقائق الخفية التي أخفاها المستشرقون المتعصبون الكارهون للإسلام والمسلمين من غير سبب وجيه عن عامة الشعوب الأوروبية. فقال:

(إنه لا توجد كتابات أكثر تضليلًا من كتابات الحركات التبشيرية، خاصةً تلك التي نُشِرَتْ في السنوات الأخيرة)، وقال: (إن كتابات الحركات التبشيرية كانت قاسية جدًّا على الإسلام). فكأن المؤلف أراد أن يعبر عن اعتذار للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وللمسلمين عما اقترفه إخوانه من المستشرقين المتعصبين ضد دين الإسلام، وألَّفَ كتابه الذي هو دراسة مليئة بالحب والتقدير لدين النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأتباعه.

۞۞۞

(٤) هدف المترجم من الكتاب:

كان هدف المؤلف قديمًا هو مخاطبة عامة الشعوب الأوروبية، وتحديدًا الشعب الإنجليزي، كما صرحَ هو بذلك. أما اليوم، فهدفي حديثًا هو مخاطبة عامة الشعوب العربية والإسلامية، لأبيِّنَ لهم أن ما كان يفعله المستشرقون الكارهون للإسلام قديمًا هو ما يفعله الآن بعض الشخصيات المعروفة جدًّا، حيث يأخذون كامل أفكارهم ومعرفتهم عن الإسلام من الغربيين والأوروبيين، فوقعوا في مآزق وإشكالات لا حصر لها، وهم أنفسهم مذبذبين بين كونهم مسلمين أو مسلمين بعقل أوروبي كامل شامل لا يعرف من الدين سوى أفكار ومعتقدات غربية مستوردة.

إن الأدهى والأَمَرَّ من ذلك أنهم يُطلقون ألسنتهم صريحة مدوية على منصات التواصل الشبكي (المُسمى بالاجتماعي)، وعلى شاشات الفضائيات، وفي كل مكان، بقولهم: (نحن رجال وهم رجال)، ثم أطلقوا سهامهم على علماء المسلمين بالسوء، ثم ضربوا بكلام (إجماع

المسلمين) عُرْضَ الحائطِ، ثم سَلُّوا سيوفهم المُلَطَّخة على (صحيح البخاري)، ثم على القرءان الكريم. فلم يخرجوا عن كلام المستشرقين قيد أُنملة؛ بل هم امتداد لفكرهم، ويَنْحَونَ نَحْوَهم. والمُتَأَمِّلُ في حالهم، يتعجب أشد العجب، فإذا هم لا يُحْسِنُونَ قراءة جملة عربية فصيحة من كتب التراث الإسلامي، بل إنَّ أعلامَ الحداثيين والفلاسفة والمفكرين الأكابر في مصر (تحديدًا) يَتَتَعْتَعُون في قراءة تراث المسلمين، وإذا ما تمكَّنَ أحدهم من القراءة اللغوية الصحيحة (وهو نادر الحدوث جدًّا)، وفَهِموا النص – وهذا نادر الحدوث كذلك – ضَلُّوا عن عمدٍ يحيطه غموض لا ينقشع أبدًا، فكيف يقارنون أنفسهم بِمَنْ نزل القرءان في زمنهم، وهم أدق الناس بلاغةً ولغةً وفصاحةً وشِعرًا وبيانًا؟!

وملخص ما أريد قوله: إن لدى هؤلاء مشكلة حقيقية تكمن في نظرتهم للإسلام إجمالًا وتفصيلًا، فإما أنهم مؤمنون أن مصدر معرفتهم الحقيقية هو ما ذهب إليه المستشرقون الكارهون للدين، ومخلصون في خدمة معتقداتهم الخادمة للحركات التبشيرية والرؤية الاستشراقية عن الإسلام، ويعملون بتَفَانٍ وإخلاصٍ على تنفيذ أجندة وضعها اليهود وأحكموا خطتهم بدقة تحت غطاء (**التيسير والحداثة والمعاصرة**)، أو أنهم جهلاء حقيقةً، أو أن هوى النفس قد تملَّكهم إلى درجة تصعب على أحد علاجها؛ فإن هوى النفس قاتل.

وينبغي أن أذكر هنا – من باب الشيء بالشيء يُذْكَرُ – أن الجماعات الإسلامية كافةً مشتركون مع هؤلاء في أرضية عريضة (أرضية الجهل المركب التام بالعلوم العربية والشرعية، وإقصاء الآخر، والتعدي على حقوق الغير بالتكفير كما يفعل الإسلاميون، وبالرجعية والتخلف كما يفعل الحداثيون)، وأن الإرهابَ واحدٌ في الجهتين: الأولى هي **جهة الإرهاب الحداثي**، وهم الحداثيون، والعلمانيون، والليبراليون، وغيرهم، والثانية هي **جهة الإرهاب اليميني**، وهم جماعات الإسلام السياسي: الإخوان والوهابية السلفية (بكافة طوائفها وأسمائها

وتياراتها: البازية، والألبانية، والعثيمينية، والجهادية، والدعوية، والحركية، والرسلانية، والجامية، والمدخلية، والسرورية، والعِلمية، ... إلى آخره)، وداعش، وجماعة الصادعون بالحق، وغيرهم من الفِرَقِ الإسلامية التكفيرية الضالة. فقد اكتوى الإسلام بنارهما أشد الاكتواء، وكان وَبَالُهما على الإسلام وعلى المسلمين أشد من المستشرقين والملاحدة والزنادقة.

❁❁❁

(٥) نبذة عن المؤلف:

يُعَدُّ (ليدر) – المولود سنة ١٨٦٥م، والمُتَوفَّى سنة ١٩٣٠م – واحدًا من المستشرقين المنصفين المعتدلين، واهتم اهتمامًا بالغًا بدراسة الحالة الدينية المِصرية بين المسلمين والمسيحيين، وكان دائمًا ينتقد الرؤية الاستشراقية للرحَّالة الأوروبيين يتهمهم بالإساءة إلى المصريين نتيجة جهل الأوروبيين بالحياة المصرية. أَلَّفَ عدد من الكتب عن مصر والمصريين، منهم كتاب (أبناء الفراعنة المحدثون)، وهو دراسة عن مصر الأقباط المسيحيون وطقوسهم الدينية وعلاقتهم بالمسلمين. يحلل المؤلف العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في مصر قبل ثورة ١٩١٩م من أجل الاستقلال عن البريطانيين، ويعتقد أن الاحتلال البريطاني دمر العلاقة بين المسلمين والأقباط في مصر. ترجمه أحمد محمود إلى اللغة العربية، وصدر عن دار الشروق سنة ٢٠٠٨م.

❁❁❁

(٦) استراتيجية الترجمة إلى العربية:

إن أكثر ما كان يشغل عقلي أثناء عملية الترجمة هو أن أوازن بين الحفاظ على روح النص الأصلي وألفاظه القديمة، واختيار ألفاظ عربية معاصرة مناسبة للقارئ الكريم. ففي بعض الأحيان، اضطررتُ إلى استخدام ألفاظ المؤلف القديمة مع شرحها في الهامش، وأحيان أخرى، استخدمتُ ألفاظ عصرية مُتجاهِلًا اللفظ الأصلي. وذلك؛ لأن هدفي هو أن يصل القارئ إلى

أقصى درجة ممكنة من الاستفادة. كما حاولتُ جاهدًا الموازنة بين استراتيجيتي الترجمة الشهيرتين: **التقريب** و**التغريب**. فإن هدفَ استراتيجية التقريب توطين كل شيء للقارئ حتى لا يشعر بالغرابة في النص الذي يقرأه، وهدف استراتيجية التغريب الإبقاء على الروح الثقافية للنص المصدر (الإنجليزي) ناقلًا جوانبه الثقافية في النص الهدف (العربي). وحافظتُ في ترجمتي على وجود استراتيجية التغريب، رغم أن القارئَ عربيٌّ، لكي يقرأ أسلوب المستشرقين في فَهم الدين الإسلامي، أو بمعنى آخر، حتى يتحرر القارئ من حالة الجمود التي اعتادتْ آذاننا على سماعها في وطننا العربي والإسلامي، وهو ما أردتُ إيصاله من خلال ترجمتي.

وللأمانة العلمية: وجدتُ كثيرًا من الحشو والتفاصيل المملة والدقيقة جدًّا، مما دفعني إلى أسلوب الحذف Omission، وذلك حتى لا يشعر القارئ العربي بالملل الرهيب أثناء قراءة الكتاب، وأن بعض الفصول؛ بل وفي الباب الثالث إسهاب كبير جدًّا لا فائدة منه. والحذف أسلوبٌ من أساليب الترجمة، ما لم يؤثر على الهدف الأصلي للمؤلف.

❁❁❁

(٧) عملي الإضافي في الترجمة:

يتلخص ما أضفتُه إلى النص الأصلي – في الترجمة العربية – ورتَّبتُه وحقَّقتُه في هذا الكتاب على النحو الآتي:

١. تقديم المترجم.
٢. توضيح بعض الكلمات أو المصطلحات أو الأسماء الغامضة في الهوامش، مع ذِكر المرجع إن وُجِدَ.
٣. تشكيل الآيات القرءانية وترتيبها وكتابتها بالخط العثماني بعد أن ترجمها المؤلف إلى الإنجليزية.

٤. تخريج الأحاديث النبوية وتشكيلها بعد أن ترجمها المؤلف في كتابه إلى الإنجليزية، واعتمدتُ في التخريج على (موسوعة الحديث الشريف) الصادرة عن (جمعية المَكنز الإسلامي)، وطريقة البحث فيه سهلة، وهو موقع يحتوي على كتب الأحاديث الستة، وكثير من المسانيد، وهي كافية تمامًا لأي مسلم. كما شمل التخريج بعض الكتب المشهورة المعتمدة عند أهل السُّنة والجماعة، مثل: (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار) وغيره.

٥. إضافة (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهي ليستْ من قول المؤلف، وإنما هي زيادة مني احترامًا وتعظيمًا وتبجيلًا لمقام النبوة، وكذلك (عليه السلام) احترامًا وتوقيرًا لمقام الأنبياء والرسل السابقين، و(رضي الله عنه)، و(رضي الله عنهم) احترامًا وتوقيرًا وإجلالًا لمقام آل البيت ومقام الصحابة.

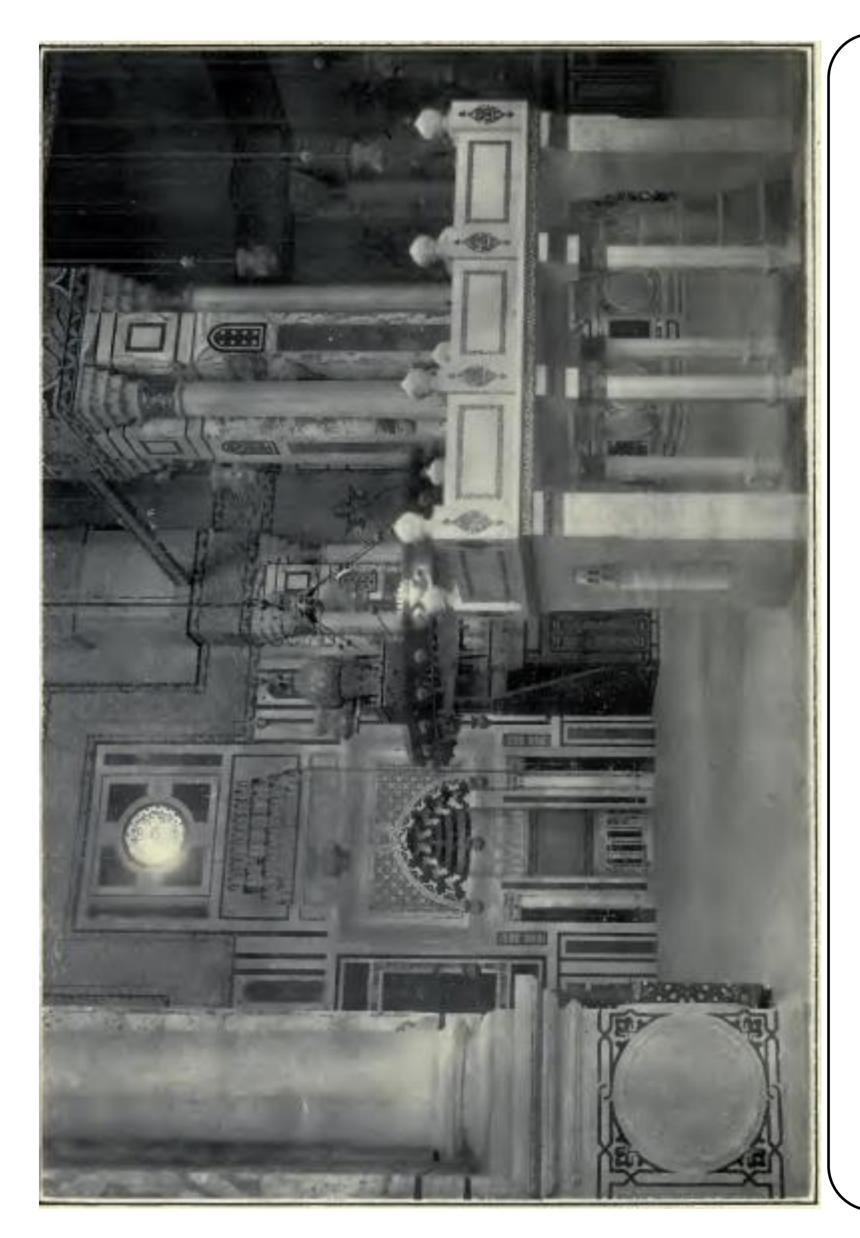
فأرجو من الله العلي القدير أن أكون قد خدمتُ الكتابَ خدمةً تليقُ بمكانةِ مؤلفه. وأتوسلُ إلى الله بجاه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وبآله رضي الله عنهم أن يقبل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يتقبله مني، وأن ينفعَ به، وأن يجعلَ جزاؤه مرافقة سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الفردوس الأعلى، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

محمد مصطفى الساكت

الإسكندرية في ١٠ ديسمبر ٢٠٢١م

Email: muhammadalsaket89@gmail.com





(مسجد الرفاعي) العظيم بجوار القلعة – القاهرة

بُنِيَ هذا المسجد بأمر من خوشيار هانم – والدة الخديوي إسماعيل – بتكلفة باهظة. التُقِطَتْ هذه الصورة، وهي الأولى من نوعها، بتصريح خاص لهذا الكتاب.



توطئة المؤلف

منذ أيامه الأولى؛ لطالما كان هناك لِثَام من الغموض حول الدين الإسلامي، ولطالما تهكمَ اليهودُ على المسلمين الأوائل – كما هو الحال الآن – الذين نشأوا وترعرعوا في بيئة شديدة الحساسية تنبذ السخرية والتهكم. ونتيجة لذلك؛ أتتْ أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم شديدة الوطأة على هؤلاء اليهود الذين طالما سَخِروا واستهزأوا بالشعائر الإسلامية التي كان يؤديها نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم وأتباعه من المسلمين.

لذلك؛ كان مبدأ سرية الدعوة الإسلامية ناتجًا عن تلك السخرية والتهكم على شعائر الإسلام وممارسة المسلمين لها، وقد أمر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أتباعه بممارسة شعائر الإسلام سرًّا في معظم الأوقات. وربما كان ذلك امتثالًا لأمر غلق الجزيرة العربية، والمدن المقدسة، لا سيما مكة والمدينة المنورة – على وجه الخصوص – لمواجهة مَن ليسوا على دينه. إن الخوف من السخرية والتهكم سبب في غلق الأماكن المقدسة في الإسلام إلى يومنا هذا. ذلك الخوف هو الدافع وراء تولُّد الكراهية والضغينة الأصولية المتحجرة تجاه كل ما هو غريب.

إن سريان مبدأ سريَّة الدعوة عامةً هو اتجاه خاطئ يسيء إلى الفَهمِ الصحيحِ لممارسات شعائر هذا الدين. وقد أدى تكتم المسلمين الشديد إلى جَعْلِ مَن يرصدُ أمور دينهم ويتابعُها أن يُصْدِرَ أحكامًا خاطئة تمامًا، أو أن ينطبعَ في ذهنه فكرة غير حقيقة عن الإسلام، بخلاف مَن يتابعُ ممارسات المسلمين لشعائر دينهم عن كثب، ويجاورهم، ويخالطهم، فإن ذلك الذي هو مَن سيفهم الحقيقة. إنه لأمر نادر الحدوث في مِصر أن تجد معرفة المقيمين الأوروبيين سطحية عن الإسلام وعن المسلمين. أما بالنسبة للسائح العادي فهو بين أمرين اثنين لا ثالث لهما: إما

أنه مِن الذين يطلقون على أنفسهم (الترجمان) [1]، وهو في حقيقته مخادع محتال، أو أنه من الذين يعمل على محاكاة أهل الورع والتقوى من المسلمين حتى يفهم دينهم، لكنه في الحقيقة لا ينال مِن مراده إلَّا المعرفة السطحية بهذا الدين.

ولِمَنْ أراد أن يفهمَ القوة البشرية العظمى العاملة في العالم، فإنه من الأهمية بمكانٍ أن ينظر بعين الاعتبار إلى دين أكثر من ستة وعشرين مليون نسمة. فقد تصوَّرَ نابليون بونابارت Napoléon Bonaparte – في فترة من فترات حياته – أن في إمكانه أن يستغل هذه القوة البشرية العظمى لتحقيق مشروعه لغزو العالم، وصرَّحَ أنه يمكن أن يكون مسلمًا. وفي حاضرنا رأينا أسلوب تعامل ألمانيا تجاه تركيا الإسلامية، حيث وصل حدُّ الحديثِ إلى درجة أن القيصرَ كانت رسائله يصرح فيها بقوله: يا صديقي وحليفي. وفي القاهرة، سمعتُ مقترحًا من السيد كارل بيترز Carl Peters نفسه، كتبه في أحد كُتُبِه الأخيرة، قال فيه نصًّا:

(يوجد عامل واحد من الممكن أن يكون ضمن صفوفنا في حالة إذا ما كانت الحرب العالمية في صالحنا؛ إنه دين الإسلام. إذ يمكننا أن نستغل الوَحدة الإسلامية [2] ضد بريطانيا العظمى، وكذلك ضد الجمهورية الفرنسية، ذلك إذا كانت السياسة الألمانية جريئة بما فيه الكفاية، ومن خلال ذلك يمكنها بضربة واحدة أن تستولي القوى الغربية على الحكم من كيب نون بالمغرب إلى مدينة كالكوتا بالهند).

---

(١) الترجمان: مصطلح كان يُطلق على المترجم الفوري وللمراسلات، وكان يُنظر إليه باعتباره الدليل الرسمي بين البلاد المتحدثة باللغات الآتية: العربية، والتركية، والفارسية، وكذلك اللغات الأوروبية. برز هذا المصطلح تحديدًا بهذا المعنى في السلطنة العثمانية.

(٢) هي أيدولوجية سياسية تدافع عن وَحدة المسلمين لتكون تحت دولة إسلامية واحدة، وغالبًا ما يُعبر عنها بالخلافة (من الناحية السياسية وليست الخلافة الراشدة التي انتهى عهدها)، كالوَحدة العربية.

ومع ذلك؛ فإن مدى الجهل بالإسلام في الغرب مخيف جدًّا بنفس القدر الذي يجعلنا نتساءل: لماذا يتفشَّى الجهل في الغرب إلى هذه الحد؟! فإن أي إنسان ليس لديه ما يدله على الحقيقة سوى المعرفة السطحية لنبي الجزيرة العربية وشريعته، يجب أن يتحرى عنها كما فعلتُ عندما أتيتُ لأعيش مع الشعب العربي في شمال إفريقيا، وكما عشتُ – لاحقًا – في مِصر، ثم قرأتُ القرءان الكريم بنفسي لنفسي. كم إن هذا الأمر برمته محيرٌ لِمَنْ جَهِلَه!

وطبقًا لذلك؛ لن يجد الإنسان من العون إلَّا قليلًا، إذا ما تناول كتابات أي مستشرق مختص ومحترف، لأنه سيتناولها من مصدر حافل بالإشعاع الفكري. أما بالنسبة لكتابات المستشرقين الآخرين، فسيجد في كثيرٍ من دعاويهم قد تأصَّلتْ وتشبَّعتْ بنوعٍ غريبٍ من الكراهية لكل شيء يتعلق بالإسلام، مما يجعل تلك الدعاوي مغرضة غير متصفة بالعقل والحكمة، وأنها قاصرة عن إعلامِ عقل الباحث عن الحقيقة بالحقيقة. لا أكتبُ ذلك بغرض خصومة أو عداوة مع عمل البعثات التبشيرية، لكن في نفس الوقت – لا بُدَّ لي من الاعتراف بأنني لا أعرفُ شيئًا أكثر تضليلًا من تلك الكتابات التبشيرية – التي تحظى بقدر كبير من القبول الآن – التي كتبها القس ويليام سانت كلاير تيسدال the Rev. W. St. Clair Tisdall، والتي تنظر إلى الدين باعتباره هِلالًا مُجَوَّفًا خاليًّا من أي معرفة أو علم. ويمكنني أن أدَّعي أن صفحةً واحدةً مما دونته السيدة لوسي داف غوردون Lucie Lady Duff Gordon عن حياة المسلمين في (رسائل من مِصر) – إلى زوجها وأمها حول مراقبتها ورؤيتها للثقافة المِصرية والدين والعادات والتقاليد – تحملُ في طيِّها سعة من المعرفة والعلم. وعلى نفس منوال القس كلاير تيسدال، كان السيد صموئيل مارينوس زويمر Samuel Marinus Zwemer، سكرتير حركة المتطوعين في أمريكا، الذي عَمِلَ مُبَشِّرًا في شبه الجزيرة العربية، وله أعمال غزيرة مشحونة بادعاءات شعواء وعدم الإنصاف حول الإسلام، ورغم ذلك إلا أن أعماله حَظِيَتْ

بقبول واستحسان كَبِيرَين من جانب المقيمين في الغرب. أما من جانب القرَّاءِ فإنهم قد يكونوا مولعين بالقراءة والمعرفة بسبب التدهور والجهل المُظلم المحيط بهم من كل جانب، وهم بذلك يعتقدون أنهم يساهمون في محو جهلهم أو التقليل منه. في الحقيقة إن هؤلاء الناس ضُلِّلوا حين اعتقدوا أنهم يكتسبون معرفة أو رؤية حقيقية منصفة لحياة المسلمين ودينهم كما وُصِفَا في كتب المستشرقين المتعصبين المُعادين للإسلام عن جهل مُرَكَّب. حقًّا؛ إنه أمر غريب بالنسبة لي؛ فهؤلاء يتبنون وجهات نظر تفتقر إلى فطنة وبصيرة راسختين؛ لأن الكَاتِبَين السابِقَين يمكنهما الاعتماد كليًّا على قبول القرَّاء واستحسان ما يكتبونه بحُجَّةِ أن الكُتَّابَ المستشرقين يكتبون عن دين الآخرين من أجل فِعل لما فيه الخير والصلاح لهم.

إن الجدلَ الذي أثاره خطاب مطران لندن في العام الماضي، في قاعة ألبرت الملكية، حاضرٌ في أذهان الكثيرين اليوم، فقد شُدِهَ المسلمون في كل مكان وأُسِيءَ إلى دينهم أيَّما إساءة، لدرجة أنه يمكن أن يُقال عن المسيحيين:

(إنهم جعلوا اسم المسيح عليه السلام رمزًا للسوء).

وهو الاسم الذي يُبَجِّلونه ويحترمونه ويُعَظِّمُونه كما يُبَجِّلون اسم نبيهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويحترمونه ويُعَظِّمونه على حد سواء، ولم تُذكر أمه مريم العذراء رضي الله عنها في موضع إلا وتُذكر بكل توقير وإجلال وتبجيل. وعندما ثار المسلمون على ما صرَّح به مطران لندن في خطابه عن الإسلام، أقرَّ على نفسه بالجهل، وأنه لم يعرف شيئًا عن الإسلام قط، وبَيَّنَ أنه تحدث في خطابه حسب ما لديه من معلومات حصل عليها من كتاب لأحد المبشرين (The Reproach of Islam) من تأليف المستشرق البريطاني القس ويليام هنري تميل جيردنر the Rev. W. H. T. Gairdner، الذي عَمِلَ مُبَشِّرًا في القاهرة لأكثر من عشر سنوات. إن هذا الكتاب ليس فيه من الادعاءات شديدة الوطأة على الإسلام كما في الكتب السابقة، لكنه مثلهم

تمامًا من حيث أنه يفتقر إلى إدراك المودة الإنسانية، والتي من غيرها – كما يبدو لي – أنه لا يمكن لأي إنسان أن يتطلع إلى القبول والاستحسان بالنسبة إلى رسالةٍ دينيةٍ من جانب أشخاص غرباء؛ لأنه من غير المودة لا يستطيع الإنسان أبدًا فَهم تطلعاتهم وما يسعون إليه.

صحيح أن هناك من بين المبشرين يتبعون نهجًا مختلفًا، يأخذون على عاتقهم مهمة الإنصاف والنزاهة، مما أدى بهم إلى صلة لطيفة مع الأشخاص الذين يريدون مساعدتهم. وأضربُ مثالًا على كتاب من هذه الكتب، ألا وهو (Aspects of Islam) من تأليف المستشرق الأمريكي القس دانكن بلاك ماكدونالد (Duncan Black Macdonald)، وكذلك القس تشارلز فرير أندروز the Rev. C. F. Andrews، وهو من دلهي – الهند، الذي لم يَنْبَسْ بِبِنْتِ شَفَةٍ عن الأمة الإسلامية، ولم يكن ذلك بالفطرة، وإنما كان بالبحث والفحص في أحوال المسلمين. فإن مثل هذه الكتب المنصفة إذا كَثُرَتْ، فسيكون من المستحيلِ الجزم بأنها من تأليف رحَّالة عاديين فقط، وليست من تأليف مبشرين يتبعون الحركات التبشيرية. فإنه يجب على الإنسان أن يُفتش عن أي شيء يشبه الصورة الحقيقية للحياة والدين في البلاد الإسلامية.

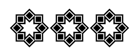
وإني لآمل أن يساهم كتابي البسيط هذا – ولو مساهمة قليلة – في النتيجة التي أرغبُ في الحصول عليها بقدر أكبر من الإنصاف والفَهم والإدراك بشكل أفضل لِمَا يُحرك أتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويتخذونه مِثَالًا وأنموذجًا يحذون حذوه. وإن عدتي وعتادي لهذا الأمر هو المشاركة الوجدانية، والاندماج التام مع الأفراد الذين قد سعيتُ إلى معرفتهم من خلال الإقامة معهم إقامة طويلة في مِصر على نحوٍ استثنائيٍّ، حتى أتمكَّنَ من معرفة ما خَفِي عنَّا نحن المستشرقين، والولوج إلى أسرار هذا الدين السائد هناك.

وقد اعتَاصَ عليَّ الولوجَ إلى الإسلام من باب الأدب العربيّ، لأنه يصعب عليَّ ذلك، لكن بذلتُ قُصارى جَهدي لأعطي فرصة – التي لم تُتَحْ لهم قط – لِمَنْ هم على قيد الحياة من المسلمين للتعبير عن أنفسهم وعن معتقداتهم وأفكارهم. لقد حاولتُ أن اندمجَ في حياتهم اندماجًا تامًّا، وأرسمُ صورتها كما شاهدتُها، وكيف يمارسون شعائر دينهم. إن رسالتهم السماوية التي يمتثلون لها لا تُعَبِّرُ عن عدم الرغبة في تحفيز البواعث النبيلة، ولا في كبح جِماح القوة في مواجهة ما هو خبيث وفاسد، وإنما تُعَبِّرُ عن سالةٍ أسمى وأرفع – مثل رسالة السيد المسيح عليه السلام في الإنجيل – لأنه في رأيي الشخصي لا يلزم تجاهُل هذه الأشياء. أجل؛ فأنا على اقتناع بأنه كان من الخطأ الفادح القيام بذلك، وربما كان ذلك هو السبب وراء ذلك العيب الذي نتأسَّفُ عليه دائمًا ونستنكرُ فاعليه.

وإذا ما نُظِرَ إلى عملي في هذا الكتاب على أنه كتاب مُؤيِّد تمامًا للإسلام، وأنني لم ألق الضوء على فترات تدهور المسلمين والمزاج المتدني العام من الناحية الأخلاقية في الشرق، فلا يمكنني إلا أن أقول إنني أنظرُ إلى هذا الكتاب باعتباره مُكَمِّل للمجلدات التي كتبتُها في هذه المرحلة من هذا الموضوع. لقد سعيتُ وراء ما أُهْمِلَ عمدًا أو جهلًا بحثًا عن مواطن القوة من أجل أن تظهر حقيقة المشهد بأكمله، ذلك المشهد الذي كان قبل ذلك كئيبًا بسبب تلك الدعاوي والافتراءات التي مَثَّلَتْ به وشوَّهته.

أتقدم بجزيل الشكر وخالص العرفان إلى كل اسم ذُكِرَ في هذا الكتاب من القادة والمسئولين في مِصر الذين ساعدوني كثيرًا حين ناقشتُ معهم كافة ما أثير في ذهني من تساؤلات فيما يتعلق بإيمانهم وعقيدتهم. كما أنه ستُجَدْوَلُ كافة الأسماء المهمة في العالم الإسلامي، وأخص بالذِّكرِ أعلام مِصر في الفكر، في آخر الكتاب. كما أتقدم بجزيل الشكر وخالص امتناني إلى بابا الكنيسة في مِصر، وإلى كل شيخٍ أو قاضٍ أو مدرس أو مدير من الذين

قدموا لي يد العون بأدبٍ جَمٍّ. إلى عددٍ لا يُحصى من أصدقائي في جميع أنحاء مِصر – الذين شحذوا الهِمَّة كي أقيم معهم فترة طويلة؛ إنها حقًّا إقامة جَنَتْ ثمارها، أتقدم بخالص الامتنان والتقدير. إن مثل هذه الصداقة – التي وجدتُها في الشرق – تُثْري حياة أي إنسان.





الباب الأول

حياة المسلم المنزلية في المدينة والقرية

١) الفصل الأول: الحياة في القرى النائية.

٢) الفصل الثاني: الفلاحون في البيت.

٣) الفصل الثالث: الحديث عن الوطنية – وظيفة اللورد كرومر – العبودية، وغيرها.

الفصل الأول
الحياة في القرى النائية

«قد يبدو غريبًا في نظر جيل اعتاد أن ينظر إلى الإسلام كما لو كان العباءة التي تحوي كافة النقائص والرذائل، إلَّا أنه مما لا ريب فيه أنَّ كثيرًا من المسيحيين في عصورٍ مبكرةٍ تعاملوا معاملةً مباشرةً مع الأُمَّةِ الإسلاميةِ من خلال مجتمعٍ ما، وتأثَّروا به تأثُّرًا جذريًّا بما تجلَّى في هذا المجتمع من مناقب وفضائل».

أرنولد؛ توماس وولكر، **الدعوة إلى الإسلام**

إن من سمات العربيّ الأصيل أنه دائمًا يجمع بين صفات محمودة، من بينها حُسن الضيافة والشهامة؛ فحُسن الضيافة يتمثل في الجود لِمَنْ نزل ضيف عليه، والشهامة تتمثل في رعاية الضيف وحمايته. فإذا كان ذلك العربيُّ مُسلمًا، فإن مثل هذه الفضائل تُكفِّرُ عن ذنوبه وتمحو سيئاته، حتى ولو كان يعيش وحيدًا بعيدًا. فقد كان حُسن الضيافة في نفس المنزلة العظيمة التي تحتلها الشهامة لدى القبائل قديمًا في شبه الجزيرة العربية.

فأولئك الكُتَّاب الذين يسعون إلى تشويه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالإشارة إلى مناقب المجتمع العربي قبل الإسلام، ينبغي عليهم أن يُحضروا دليلًا على صدق دعواهم؛ ففي النظامِ القَبَليِّ نجد أنه كان يحكم كل قبيلة أكثرهم جُودًا وشجاعةً، بحيث لو نَصَبَ خيمته في مكانٍ ما، يمكنه أن يستقبل أي شخص كان لضيافته، كصديق عائد، أو عابر سبيل محتاج، أو حتى عدو أراد أن يعتدي على قبيلته، فكل ذلك من نُبل صفاته. ومع تراجع هذا النظام وهلاكه، تقلَّصتْ هذه الفضائل القَبَليَّة، كما هو واضح للعيان في الأزياء الملكية، وبالتحديد تلك التي يختارها الحاكِم

المُنْتَخَب. لكن ينبغي علينا ألَّا ننسى أنه بنفس النهج الفكري قد يظهر أن الفترات الإقطاعية في إنجلترا كانت أفضل من أيام الأمن والحرية لجماهير الناس التي خلَّفتها.

لكن – في حقيقة الأمر – إن هذه الفضائل النبيلة، كما هو واضح للعيان، لا تزال موجودة ومُتَحَقَّقَة في العرق العربي، وتُعَبِّرُ هذه الفضائل عن نفسها بألف طريقة إذا جاء إليهم مَن لديهم صداقة أو علاقة ودّية قوية مع المسلمين العرب، فيُدخِلوا الصديق إلى حَرَمِ بيت العربي، سواء أكان خيمة أو قصرًا. ولو أمعنا النظر في تزمُّت فِرْقَةِ الوهابية وتعصُّبهم – أولئك الذين سيطرتْ عليهم حِمِيَة العقيدة التطهيرية (البيوريتانية) بحُجَّةِ إعادة الإسلام إلى التشريع القرءاني والعهد النبوي بالقضاء على كل المظاهر الشخصية، حتى أنهم جعلوا شرب القهوة والتبغ من الذنوب، ولا يُجيزون استخدام المُصلَّى الشخصي – سجَّادة الصلاة – للصلاة بحُجَّةِ أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يفعل ذلك – كل ذلك بما فيهم من قسوة قلب وتعصب لم يكبحْ السليقة الموروثة من كرم الضيافة في الفطرة العربية، كما استشهدَ بذلك پالغريف في قصة أسفاره في وسط الجزيرة العربية. وكان پالغريف هو الذي عثر على بيتين من الشعر للشاعر الشهير عمر بن الفارض [١]:

Welcome to him of whose approach I am all unworthy
Welcome to the voice announcing joy after lonely melancholy
Good tidings thine; off with the robes of sadness; for know
Thou art accepted and I myself will take on me whatsoever grieves thee.

ومن دواعي اعتزازي أني استمتعتُ بكرم الضيافة وحُسن رعاية المسلمين، ولذتُ بحمايتهم في جميع الأحوال تقريبًا في قصر الباشا، وبيت المدينة لدى الرجل النبيل في القاهرة،

(١) لم أتمكنْ من الوصول إلى بيتي الشعر الأصليين، بعد محاولات عديدة ومريرة لترجمة البيتين إلى العربية.

وفي بيت الإقطاعي نزلتُ ضيفًا على دوره [١] في صعيد مِصر. وفي بيت من بيوت الدلتا، أقمتُ فيما ينبغي أن نُطْلِقَ عليه (منزلًا دُوقيًّا)[٢] يشتهر بمنظره الفخم اللائق باستقبال الضيوف، مما جعل كرم الضيافة وحُسن المعاملة وهدوء المكان يشد مِن أزر مَن يرغب في الاستمتاع بانطلاق العقل والفكر دون قلق أو ضيق من أحد.

كما تتجلى هذه الشجاعة تجاه الشخص الذي ينزلُ ضيفًا على العربيِّ في خيمته في الصحراء أيضًا، وكذلك لو كان العربيُّ يسكن في كوخ من طين في واحةٍ نائيةٍ؛ المهم أن كرمَ الضيافةِ لا ينفك عن شخصية العربيِّ، بحيث يمكن لكرم الضيافة يزيل قيود الفقر بالقدر الذي يُخَفِّفُ من إظهار الغنى. ويمكنني القول إنني عَظَّمْتُ من قيمة التلاحم بين الناس تعظيمًا عاليًّا، بصرف النظر عن تلك الصدقات التي كونتُها؛ وذلك لأن الأوروبيَّ من النادر جدًّا أن ينظر إلى أفضل ما في المجتمع المسلم. فالأوروبيُّ يمكنه أن يتعرف إلى الطبقة الحاكمة فقط بسهولة؛ لأن المِصريَّ إذا تلقى تعليمه بإحدى المدن الأوروبية، فإنه يستخف بدينه ويزدريه، فجوهر هذا الأمر أن ذلك المِصري لم ينشأ كبقية المسلمين الذين نشأوا، ولم يكن في هذه الدائرة التي تلقى فيها المسلمون تعليمهم، والتمتع بالعيش في حياة متدينة.

وقد دُعينا لقضاء أسبوع في قرية نائية – في صعيد مِصر – مع أصدقاء لنا بهم سابق معرفة وقمنا بزيارتهم في القاهرة. وعند وصولنا إلى أقرب محطة سكة حديد، التقينا بابنٍ من أولاد البيت، ويرافقه موكب مُتَّسق صفوفه من الخَدَمِ والخيولِ، وحمار من أجل أن أمتطيه خمسة أميال عبر سهل خصب. كانت الفرس البيضاء المخصصة لي مزينةٌ بأبهى حُلَّة. وكان يصطحب كل فرد من الخَدَمِ مُرافِقًا من الفلاحين؛ يستقبلون الضيوف بحفاوة، فرحين بدماثة أخلاقهم

---

(١) الدور: جمع دار؛ أي البيت.

(٢) الدوق Duke: هو شخص نبيل من نبلاء الإنجليز، وهو أقل من رتبة الملك أو الملكة.

الكريمة، خاصةً عندما يكونوا مرتبطين وجدانيًّا ببيت قديم تاريخيًّا، وبه رب البيت الذي يحترمونه ويُبجِّلونه، وكما كان أسلافهم مِن عهدٍ لا ترقى إليه ذاكرة أحد.

وأثناء سيرنا في أحد الطرق الضيقة والمتعرجة، وبجوارنا القنوات المائية التي كانت توفر لهم إمكانية الخصوبة الزراعية، كانت الحقول خضراء في كل مكان مزدهرة بمحصول من قصب السكر الطويل والذرة الهندية، وكذلك الفاصوليا الجديدة التي بدأت في الظهور. إن هذه المنطقة من مِصر بدأت تزدهر وتنتعش زراعيًّا بفضل نظام الري، والذي كان حُلمًا من أحلام الناس في عهد محمد علي باشا؛ فقد سُطِّرَ الحُلم على الورق، ونُفِّذَ في ظل الحكم البريطاني. فالقنوات التي مررنا بها جميعها جديدة؛ فقبل عامين، كان فيضان نهر النيل هو الفرصة الوحيدة لمحصولٍ سنويٍّ واحد فقط، أما اليوم فتُزْرَعُ ثلاثة محاصيل سنويًّا.

فأصدقائي من العرب المِصريين – لم يفقدوا صلاحهم وتقواهم ودينهم – عندما تعاملوا مع الحضارة الحديثة واحتكوا بها؛ فمثلهم كمثل المسلمين الأوائل في تقواهم، بل تمكَّنوا من السيطرة على ثرواتهم باستخدام الحضارة الحديثة، لدرجة أنهم لم ينكروا فضلها عليهم – بالتأكيد – بل إنهم مدينون بالكثير لهذا الثراء الثلاثي كل سنة لأراضيهم، وهم صريحون بما يكفي للاعتراف بذلك. إضافةً إلى أن خط السكة الحديد جعل من الممكن إنشاء مكتب بريد يعمل يوميًّا، بعد أن خط السكة الحديدة قلَّصَ مسافة الطريق حوالي ثمانية أميال من القرية، وفي هذا النفع العظيم.

فليس من الضروري أن نُفْتَنَ بالاحتلال البريطاني على نحوٍ أعمى كي نشيد بالمنافع الدنيوية والمادية التي جُلِبَتْ معه بسخاء، أو التخلِّي عن كل ما تُشَكِّله المبادئ القومية؛ لأن الإنسان لن يتهم الاحتلال البريطاني بـ (خراب مِصر)، أو يصب جام غضبه على كل شيء يتعلق بما هو إنجليزيّ، فيما يخص بلد النيل، على طريقة السيد بلنت Wilfred Blunt.

كانت المدة الزمنية لرحلتنا عبر إحدى هذه الطرق الضيقة والمتعرجة، وفي منتصف المسافة تقريبًا كان لا بُدَّ أن نعبر القناة باستخدام المعدّية. كما كانت فرصة بالنسبة لي أن أرى أهل الريف عن قُرب؛ حيث كان ينتظرنا حشد عشوائي صغير على هذا الجانب، وجماعة متكدسة على متنِ معدّية قادمة نحونا، ناهيك عن تلك الحيوانات المختلفة التي رافقتهم.

أما فيما يخص المراكبي، فقد كان شخصًا مُسليًّا، لكنه كان من الطبقة التي تنتمي إلى السخرية اللاذعة في الحديث. كانت تعليقاته على مَن معه على متن المعدّية مِثالًا على خشونته المنبثقة من صراحته القاسية، وكأنها تعبر عن المزاج العام في الشرق، وهي بطبيعة الحال تثير اشمئزاز الآذان الإنجليزية. فكان النقد الذي وجهه إلى فتاة قروية في الرابعة عشر من عمرها – أو ما يقرب من ذلك – بسبب حماقتها، جعل الرجال والنساء يبتسمون سخريةً. ففي زمن تشوسر Geoffrey Chaucer، كان أجدادنا يفتقرون إلى ما نعتقد أنه بديل مهذب في الكلام؛ فإننا لم نتقدم كثيرًا عندما كتبَ شكسبير Shakespeare أو حتى فيلدنغ Henry Fielding. وقيل لي إنه من الملاحظ أن التطور البطيء في مِصر مرتبط بزيادة رقعة التعليم، وفيما يخص طبقة النبلاء، فهم على الأقل قد اتصلوا بالغرب مما له تأثير واضح، وأنا أشهد بذلك. أعترفُ أن الخشونة في الكلام ما زالت مروعة بالحديث مع السكان الأصليين، إلا أن المِصريين أدركوا أن كبح هذه الخشونة في التعامل مطلوب في التعامل مع الأوروبيين النبلاء. أما أنا وزوجتي لم تُوجَّه إلينا أية تعبيرات فظَّة أو غير لائقة خلال الشهر التي عشناها وقضيناها مع أهل الشرق.

وغضب المراكبي من تصرف أحد خَدَمنا – وهو زنجي – حيث انزلق بغله في القناة من على سطح المعدّية التي كانت متسخة بالطين، فقفز الخادم الزنجي بسرعة على ظهر البغل، ثم استكمل عبور القناة سباحةً على ظهر بغله، مما أغضبَ المراكبي؛ لأنه بذلك خسرَ ثمن أجرة

فردين من أفراد المعدّية! هنا؛ وبعد أن كظمَ الزنجيُّ غيظَه، فإنه بذلك نجح في أن يسحق موضع الاحتقار الذي كان يُنْظَرُ إلى خَدَمِنا منه.

ومن المثير للاهتمام أيضًا أن نرى كيف يتعامل المسئول عن رعاية الجاموس والماشية – ربما كان صبيًّا أو صبيةً لا يتجاوز أحدهما السادسة أو السابعة – أن يُقنِعَ هذه الماشية لتعبر المجرى المائي تجنبًا لدفع أية رسوم للمعدّية! لا غرو أن ادخار عُشرًا من البِنس [1] أمر له فائدة؛ لأن الناس في مِصر فقراء كحال الفلاحين. وبدأ القارب الذي كان يحملنا في البدء أخيرًا، ونحن في غاية السعادة، إلا أنه لم يكن هناك الهدوء الريفي بشأن هؤلاء الفقراء الكادحين، بل وجدنا حُسن الفكاهة من الفلاحين، وابتسامة ترحيبية لطيفة منهم لنا، وقليل من فضولهم الزائد، وإظهارهم الاستعداد الدائم لخدمتنا.

وأخيرًا، بعد أن عبرنا القناة المائية، امتطى كل واحد منا رَّكُبته [2] وانطلقنا بعيدًا. كانت الأرض التي مررنا بها كلها مغمورة بالمياه عند قمة النيل؛ لذلك كانت القريتان أو الثلاث قرى الذين في مرمى البصر كما لو أنهم جزر وليست قرى ريفية، إلا أن الفيضان الآن عاد إلى القنوات المائية وإلى النهر. بدتْ القرى وسط أشجار النخيل واقفةً جنبًا إلى جنبٍ مئذنة المسجد، وكأن المئذنة هي تاج القرى. إن المشهدَ حقًّا في غاية الروعة والجمال.

وسرعان ما ظهرتْ ملامح القرية التي كنا سنقيم فيها؛ بدتْ وكأنها واقفة بشكل جميل على تلٍّ صغيرٍ مستديرٍ أو على أرضٍ مرتفعةٍ قليلًا عن سطح الأرض. في وسط القرية توجد الدار بارزةً ومميزة، مكونة من ثلاثة طوابق، وكانت الدار مرتفعة جدًّا أعلى من الدور الأخرى. كما أن صديقنا (عمر) أشار إليها لنراها وهو في حالةٍ من الفخر الشديد، حيث يوجد هنا مكانان

---

(١) البِنس: ١/ ١٠٠ من الجنيه الإسترليني.

(٢) الرَّكُوبة من الدواب: المخصصة للركوب.

أو ثلاثة للصلاة، أحدها بناها عُمدة القرية. ثم سلكنا طريقًا عبر محصول الفاصوليا، ومنه إلى ممرٍ ضيقٍ حتى دخلنا إلى طرقٍ ضيقةٍ في الكَفْرِ.

إن البيت الذي رأيناه من بعيدٍ مِلكٌ للعائلة التي سنقيم معها، لكن بالنسبة إلينا، كالعادة، محجوز لنا منزل صغير منفصل، وخارجه فناء خاص بالمنزل، بجوار المنزل الكبير، يعتبر مِلك لنا. كان على باب منزلنا رجال العائلة في استقبالنا، وهم الأخوين الأكبر لـ "عمر" بذوق عالٍ ودماثة أخلاقهما؛ فقد كان المنزل وكل ما فيه من الخَدَمِ تحت أيدينا. كان كل شيء تحت إمرتنا حرفيًّا. استقبلونا أفضل استقبال، ورُحِبَ بنا أكثر من مرة في أكثر من مكان، وكان من دواعي سرورهم وفرحهم إذا رضينا وقَبِلْنَا ما أُعْطِيَ لنا.



صورة من القرية: سحب المياه من النيل بالشادوف يدويًّا.

وعلى المنوال الشرقيِّ، تنهالُ المجاملات اللطيفة أثناء الحديث مع أهل الشرق؛ فقد قال لي أحد الإخوة ذات مرة مبتسمًا: (إنه شرفٌ لقريتنا؛ لقد حلَّتْ البركةُ على دارنا ... الله يسلمك) [١].

خُيِّلَ لي أني سمعتُ همهمات مليئة بالمبالغات في الترحيب بي. أعترف بأن هذه التحيات والترحيبات هي شكل من أشكال أدب الاحتفال، والتي تُقال بحفاوةٍ هادئةٍ، مما يدل على أنها عادة قديمة فيهم؛ أي ليستْ وليدة اللحظة. ويظهر ثراء الضيافة الفعلية بطريقةٍ توارثوها، وهي نابعة من إخلاصهم وصدقهم وحُسن نيتهم. وقد شاعَ ذات مرة – في قرية معينة بمِصر – أن الطاعونَ الذي أصاب الماشية بمنزلة عقاب عام نَزَلَ بهم لسوء معاملة أحد السكان الأَجْلَاف لأحد الغرباء.

ومما أسعدني جدًّا وراقَ لي – لاحقًا – عندما لاحظتُ أن هذا النوع من الأدب الأخلاقيِّ وصل إلى درجة أن الرجل الذي كان يقرأ رسالة، أرسلها صديقٌ له، بصمتٍ، ردَّ بصوتٍ مسموعٍ على ما في الرسالةِ من المجاملات والعبارات الترحيبية الموجهة إليه، كما لو أن الكاتبَ موجودٌ وحاضرٌ. ثم جلسنا بعض الوقت في السلاملك مع مَنْ استقبلونا، ثم تحدثنا، وأشعلنا غليوننا، وشربنا القهوة. ثم قام (عمر) ليعرفنا بكل شيء في المكان. بُنِيَتْ الدار من طابقٍ واحدٍ على هيئة مربع، وبسقف واحد علوي، وبهو رئيس كعادة البيت العربي في الطبقات الغنية الراقية، وحُجرة في كل زاوية تطل على بهو البيت.

كانت حُجرة النوم الخاصة بنا كبيرة وواسعة، وأَسِرَّتُها محاطة بستائر الناموس [٢]، وكان طراز أثاث الحُجرة حديث جدًّا، وكان بالحُجرة إبريق نحاسي شرقي له فوهة، وحوض

---

(١) تُقال بالعامية المصرية قديمًا: "شرفتنا يا خواجة ونورتنا ... حلتْ البركة علينا. الله يسلمك من كل رَدِيّ" (أي من كل سوء).

(٢) الناموسية.

للاغتسال. وشرح لنا (عمر) كيف لخادمنا يصب الماء من الإبريق عندما نرغب في الاستحمام أو الاغتسال، إلَّا أنه ذَكَّرَ نفسه أن الإنجليز يُفَضِّلُونَ أن ينثروا الماء بطريقة معينة. فعثرَ الخادم على حوضٍ أوسع وإبريقًا أكبر؛ فلم يكن لخادمنا الشخصي العربي خبرة في التعامل مع الأوروبيين، لذلك كان في حيرةٍ من الأمر حينما أبلغناه أننا لسنا في حاجةٍ إلى مساعدته في هذا الأمر بالتحديد.

ففي الغرب، فإذا دعونا ضيوفًا، نخبرهم باستعدادات الإقامة في البيت فيما يُسمى بـ (ménage) [1]، فإننا نعتمد عليهم في استيعابهم لدور كل واحد منهم في البيت بشكل أو بآخر. أما في الشرق؛ فإن عادات الضيف ورغباته المختلفة عنهم تظهر من خلال الأسئلة الموجهة إليه، وبعد فترة من الوقت يصير كل شيء على ما يرام. كنتُ أتوقعُ ذلك هنا، وبدوري حاولتُ أن أستكشفَ عادات العائلة المِصرية، لكن دون توفيق كبير في ذلك. وعلى أية حال، توصلتُ – لاحقًا – إلى حلٍ وسط يجعلني أنسجم مع عاداتهم، وينسجمون هم مع عاداتي ورغباتي.

إن هذه القرية بعيدة عن الزائرين من السيَّاح، الذين لم يحلموا قط بوجود مثل هذا المكان، وكذلك عن الذهبية [2]، وباخرة كوك، أو حتى أنها بعيدة عن أكثر المعابد إهمالًا الخاصة بإيزيس، ولم يرها أي شخص إنجليزي قط من خارج الفئة الحكومية، لدرجة أن زوجتي هي أول سيدة أوروبية معروفة بزيارتها.

قد أخبرتُ صديقي أنني حريصٌ على مقابلة السكان الأصليين (كما يعيشون بطبائعهم وعوائدهم)، قدر الإمكان. لم يلبث إلا قليلًا ليخلع ثيابه الأوروبية كي يرتدي ثيابه الريفية،

(١) هو نظام أوروبي معناه: تدبير شئون المنزل، وذلك في حالة وجود أكثر من شخص في منزل واحد.

(٢) بالعامية المصرية تُنطق (دهبية)، وهي سفينة ركاب تُستخدم على نهر النيل في مصر، وهي مثل الصندل باثنتين أو ثلاثة من الأشرعة (جمع شراع).

وهي عبارة عن جلباب، واقترح عليَّ أن أرتدي مثله؛ حتى يَسْهُل عليَّ الاقتراب من أهل الريف البسطاء والتودد إليهم، فوافقتُ على الفور، وارتديتُ رداءً مشابهًا للذي يرتديه صديقي، ثم ألبسني طربوشًا مثله أحمر اللون. كما أمر صديقي أن تكون لي مجموعة من الثياب خاصة بي كي أرتديها، فهي ثياب فئة الشيوخ أو فئة العلماء. ومن نواحٍ أخرى؛ وجدتُ أن لهذا النوع من الثياب ميزة، إذ توفر الراحة لِمَنْ يرتديها؛ لأن الطريقة الشرقية في شكل القعود والجلوس على رجلين متقاطعتين لا بدَّ لها من ثياب فضفاضة مريحة كهذه. فصديقي عُمر – عندما يكون في الريف لقضاء العُطلة – يجد أن هذه الثياب هي الأنسب لإقامة الصلوات، إن لم يكن ضروريًّا، للوضوء وممارسة شعائر دينه الأخرى.

وبينما كنا نتجول في الريف كثيرًا، مررنا بالعديد من الناس على جانب الطريق، وكذلك في القرى. قد كنتُ سعيدًا جدًّا لأنهم ردُّوا عليَّ السلامَ، فألقيتُ عليهم تحية المسلمين: (السلام عليكم)، فكان ردُّهُم: (وعليكم السلام). هذا هو العُرف العام الذي لا يغفل عنه أحد؛ فالراكبُ على الناقةِ أو الجَمَلِ يبادرُ بالسلامِ على راكب الخيل، والراكبُ على الخيل يبادرُ بالسلام على راكب الحمار، وراكب الحمار على الماشي، والماشي على الجالس، والصغير على الكبير. الجميع في ذلك على قدم المساواة، لا فرق بينهم أبدًا؛ لأنه ذلك كان من فِعل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يُلقي السلامَ على جميع الناس مهما كان دينهم أو أحوالهم، كما قال: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً» (١).

(١) لعل المؤلف يقصد هذا الحديث أعلاه، وحاولتُ التوفيقَ بين ترجمة نص المؤلف والبحث في الأحاديث النبوية عمَّا يتطابق مع أو يقارب النص الأصلي. والحديث أخرجه مسلم في صحيحه – كتاب البر والصلة والآداب – باب النهي عن لعن الدواب وغيرها – حديث رقم ٦٧٧٨، والحديث من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

أما لو كنتُ قد ارتديتُ قُبعةً، لنظرَ إليَّ الناسُ في حيرةٍ من أمري، وربما استاء بعضهم قليلًا إذا ألقيتُ عليهم تحية الإسلام، أو ربما لم يرد أحدهم السلام بالصيغة المعهودة (وعليكم السلام)؛ لأن هذه التحية يُلقيها المسلمون بعضهم على بعضٍ.

قال الله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ٨٦﴾ [1]؛ أي أنه من الخطأ القول إن المسلمَ لن يرد على تحية المسيحي. وعلى النقيض من ذلك؛ فإن الوثنيَّ أو الكافرَ لن يرد على تحية المسلم بالسلام. وأما إذا ألقى مسيحيٌّ السلامَ على مسلمٍ، فسيرد المسلمُ غالبًا بقوله:

(السلام على مَن اتبع الهدى).

إنه لأمر ممتع للغاية أن نرى الإبداع والتفنن في إلقاء السلام بين صديقين غاب أحدهما عن الآخر فترة طويلة، سنرى كيف يكون الترحيب بينهما؛ كلاهما يتنافس في أن يرد تحية الآخر بأحسن منها، حتى ينالوا شرف طاعة الله في الآية السابقة.

- السلام عليكم!
- وعليكم السلام!
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته!
- نهارك سعيد.
- نهارك سعيد مثل أمس.
- وسَّع الله عليك وزادك من فضله.

وما شابه ذلك. هناك شيء في اللغة العربية يُفْسِحُ المجالَ للتكرار الإيقاعي وتمديد العبارات. ونرى ذلك من خلال السيد تالبوت كيلي Mr Talbot Kelly – الذي يعرف

---

(1) سورة النساء: ٨٦

الناس في أقصى مكان بمِصر من خلال أسفاره كمستشرق وفنَّان – كيف كانت (مجاملة العالم القديم).

يقول السيد تالبوت كيلي: (إنَّ كثيرًا ما يُلْقِي أحدُ المِصريين السلامَ عليَّ، ويسألني: "كيف حال عملك؟").

فأجيبه: الحمد لله!

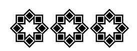
فيرد عليَّ: (وسَّع الله عليك! ربنا ورسوله أعلم بالطيبين الصالحين).

فتتخلَّلُ هذه الصور البلاغية الجميلة شمائلها – في بلاد الشرق – تعبيراتُ جميع الطبقات، لا فرق فيها بين غني وفقير من الفلاحين. وكل ساعة قضيناها في الحقول والقرى والقنوات المائية، نتبادل التحيات والترحيبات مع الفلاحين، لا سيما المصافحة باليد. فلو افترضنا – مثلًا – أن شابًّا جامعيًّا إنجليزيًّا لديه يد واحدة – يا له من افتراض مثير للاشمئزاز – كيف يتبادل مع مسلم المصافحة باليد، لأن المسلم يعتبر هذه هي الطريقة الصحيحة الوحيدة التي تُبَرْهِنُ على صحة ما يقوله بلسانه (السلام عليكم) مع الباشا أو العبد الخادم؟!

فإن الترحيب الحار بين السيد والرجل، هو مزيج غريب الأطوار من الثقة الصريحة والاحترام الذي يقترب به الأكثر فقرًا والأكثر جهلًا إلى طبقة الأغنياء والمثقفين؛ فإن مكانة كلا الطرفين تسمح بالمساواة، مما يؤدي إلى تأكيد احترام الذات، ومع كل هذا فإنه أمر يخلق مصلحة مشتركة بين الطرفين في المجتمع، وهذا سيكون مُملًا أو حتى عمل غير أخلاقيّ.

أما عن نساء القرية، فكُنَّ يستترنَّ عند وجودنا، سواء بالدخول إلى المنزل، أو بتغطية رؤوسهنَّ بوشاحهنَّ الأسود؛ وذلك نوع من تبجيلهنَّ لنا. فالمرأة في الريف لا تَتَّشِحُ بحجابها كاملًا كما تفعل المرأة في المدينة، فهي لا تُلقي السلام، إلا في حالةٍ واحدةٍ وهي أن تكون المرأة معروفة لأحد أفرادنا، فإنه يجب علينا أن نتحدث إليها.

وأينما ذهبنا، لمسنا في هؤلاء البسطاء كرمهم وفضلهم علينا، فيقولون: (يشرفنا زيارتكم إلى منزلنا لتشربوا معنا فنجانًا من القهوة أو نأكل سويًّا)، فقد كانت الدعوات تنهال علينا من كل جانب. فإن ما يعرضوه علينا هو كل ما يمتلكونه في كثيرٍ من الأحيان، وإذا عرضنا عليهم مكافئة لما يقدموه لنا من خِدْمَاتٍ، فهذا يسبب جرحًا عميقًا لهم، ويعتبرونه إهانة لهم، بل إن كل ما يرغبون فيه هو أن تتلطَّفَ معهم وتقبلَ ضيافتهم لك دون مقابل.



الفصل الثاني
الفلاحون في البيت

«كنا نذهب إلى منزل هذا الرجل عندما يُرهِقُنا (غافل) وأمثاله، ونقضي معه ومع أولاده وقتًا طيبًا في قهوته، ونستمع إلى الشعر العربيِّ أو نُلقيه، كما نتحدث أيضًا عن أحوال البلاد وآمالها المستقبلية المرتقبة، كما نناقش أيضًا المسائل الأخلاقية، أو نُعَلِّق على أساليب العصر وأحواله».

بالغريف؛ ويليام غيفورد، **وسط الجزيرة العربية وشرقها**

وفي بهو منزلنا، التقينا مرة أخرى برجال العائلة، كما لو أننا نحن المضيفون وهم الضيوف من حيث المعاملة التي بيننا. وعقب وصولنا بقليل، أُبْلِغْنَا بوجبة الغداء في الحُجرة المجاورة، فذهبنا جميعًا إلى حُجرة الطعام، وعقب الانتهاء من تناولنا للطعام، أخذنا مناديل كانت على المائدة، وغسلنا أيدينا؛ لأننا كنا نتناول الطعام بأصابعنا على الطريقة الشرقية، ثم عدنا مرة أخرى إلى بهو منزلنا.

فلا شيء يمكن أن يفوقَ الأناقة والنظافة التي يتمتع بها العرب أثناء الطعام، حتى ولو كان العربيُّ بسيطًا للغاية. وإذا كان يبحث السائحُ عن برهان على ذلك، دعه يراقب البحَّارة وهم ينتظرون فتح كوبري قصر النيل – تحت سور سميراميس في القاهرة – حيث يجلسون حول صحنٍ واحدٍ يأكلون منه جميعًا وجبة العشاء، مع غروب الشمس.

أما فيما يتعلق بي، فأتناولُ الطعامَ بهذه الطريقة بكل سرور؛ لأني أعلمُ مدى التزام المُسْلِم الشديد وحرصه على تنظيف يديه (تُستخدم اليد اليمنى في تناول الطعام وحسب، وهذه اليد محظور عليها أن تُلامِسَ بمواضع النجاسة)، بالإضافة إلى وضوء الصلاة، يوجد دائمًا طهارة

خاصة عند تناول وجبات الطعام. لذلك؛ كل هذا يُجَنِّبُ المرء التفكيرَ في الحيرة التي تنتابه حول تنظيف الملاعق والصحون وشوكة الطعام.

فيا لها من وجبةٍ لمأدبة الطعام كانت بمنزلة مُقَدِّمَة لمأدبتين يوميًّا بتناولهما إلى أن انتهت إقامتنا في مِصر. ولحُسن الحظ؛ كان (عمر) في إنجلترا، فهو الذي كان يعرف حدود شهيتنا للطعام؛ أي لم نكن مضطرين لتناول أكثر من وجبة يوميًّا وعدد لا حصر له من أطباق الطعام، كما تفرضه علينا العادات المِصرية.

وبعد احتساء القهوة، والقيلولة في بهو المنزل، قمنا باستكشاف القرية، والتقينا بأعيانها وكبرائها. إن قريةً بهذه المساحة يبلغ عدد سكانها ألفي نسمة، وبها عُمدة ونائبه، وأتى إلينا المسئولون ليعبروا عن احترامهم لنا. وقد عينتهم الحكومة في هذه الوظيفة براتب زهيد، لكن ببعض الامتيازات؛ أي على سبيل المثال: يُعفى ابن العُمدة من الخدمة العسكرية. فمسئولية العُمدة في القريةِ أنه يُنَظِّمُ قوانينها وإدارتها، بل ويمكنه إصدار أحكام بالسجن تصل إلى اثنتي عشر ساعة كذلك.

عَلِمْنَا أن مِصر مُقَسَّمَةٌ إلى محافظات، وكل محافظة يحكمها مدير ونائبه، وكل محافظة مُقَسَّمَة إلى مناطق وأحياء، وفي كل منطقة وحي يوجد مأمور له سُلطة على عدد من ضباط الشرطة. فمن مهام المأمور أنه يُشْرِفُ على القرى الواقعة تحت سُلطته في منطقته، ولكل قرية عُمدة يديرها. وكانت محافظة بني سويف هي التي أقمتُ فيها، ويوجد بها ثلاثة مأمورين تحت سُلطتهم ثلاث مناطق. ففي الوجه البحري توجد محافظة طنطا، وتضم أحد عشر منطقة (حي)، كما يوجد مجلس إقليمي لكل محافظة يرأسه مدير. ويخضع عمل المحافظة الإداري لنظر مفتش داخلي إنجليزي، وهؤلاء المسئولون أعضاء في المجالس التي لديها سُلطة على عُمدة كل قرية، لكنهم ليسوا أعضاء في المجلس الإقليمي.



(سيدة مصرية وطفلها)
تعرض الصورة ثياب الطبقة الريفية وطريقة حمل الطفل الصغير.

خرجنا من شارعٍ ضيقٍ إلى أشعة الشمس الساطعة، التي كانت في شتاء ديسمبر بمِصر، كانت أشعة ذهبية حقًّا؛ فهي من بين كل الأشياء في الطبيعة الأكثر بهجةً.

وكانت القرية الوحدة الخضراء، لكنها لم تكن خُضرة حشائشها، إلا أن قُطْعَانًا من الأوز تنفض وسخها عن نفسها، والأطفال كانوا يرتدون ملابس زاهية الألوان، ويلعبون ويلهون مع بعضهم البعض. ومن الجهة المقابلة، خارج باب الكوخ، جلسَ عددٌ من الرجال يرتدون جلابيب بيضاء أو زرقاء اللون، ويدخنون، ويتجاذبون أطراف الحديث. كما يوجد ثلاث أو أربع نساء يمرون – الآن – يرتدون ملابس سوداء، إحداهنَّ تحمل طفلها على كتفها الأيسر، والأخرى تحمل وعاءً من الماء على رأسها، سعيدة بدوران المِشْكَال [1]، وذلك حتى يشاهدنَّ صورة مضبوطة.

والآن نعبر الجزء الأخضر من القرية، وندخل إلى طرقٍ متعرجةٍ بها مرة أخرى، وهنَّ بالكاد يمكن تسميتها بالشوارع؛ لأن عَرْضَهنَّ يكفي فقط لمرور فارسٍ على ظهر فرسهِ. وتُبنَى المساكن المتواضعة من الطوب اللَّبِن، وبعضها يُدْهَنُ بالطين الخشن، مكونة من طابق واحد وحسب. وعلى أية حال؛ فإن هذه المباني جميعها مبنيٌّ على نمطٍ أوليٍّ بسيطٍ، وهو بناءٌ يُعَدُّ الأفضل في مقدورهم أن يفعلوه.

فكم هم بدائيون بسيطون! انتبهتُ لِمَا على الجدران الخارجية على جانب مدخل العديد من الدور الريفية علامات طويلة ومخدوشة في الطين – في مكانٍ واحدٍ – يصل إلى أربع ضربات في مكانين آخرين، وهكذا. ويُفَسَّرُ ذلك بأن البائع المتجول المحترم الذي كان يسافر على طول

---

(1) المِشْكَال: مِنظار قديم، وهو أنبوب مرايا يحوي خرز ملون، وحصى حر، بحيث ينظر الناظِرُ من أحد الأطراف، ويدخل الضوء من الطرف الآخر مُنعكسًا على المرايا. يمكن عن طريقه رؤية ألوان وتصاميم جميلة. ويتراوح قطره بين ٥ و٨سم، وطولها نحو ٢٥ سم. وكلا طرفي الأنبوب مغلقان إلا أن أحدهما به فتحة صغيرة يمكنك النظر من خلالها إلى داخل المِشْكَال.

الطريق إلى المدينة المنورة، كان يُنْظَرُ إليه باحترام شديد؛ لأنه قادم من الأراضي المقدسة، ويزور جميع القرى في هذا الجزء من مِصر، ويبيع بالدَّينِ لأهالي الأكواخ الفقراء، ويضع علامة على الجدران الخارجية للأكواخ. وبهذه الطريقة يمكن له معرفة المدينين له.

ثم تابعنا استكشافنا للقرية، فمررنا على دارٍ زُيِّنَتْ حول مدخلها برسوماتٍ بدائية تشير إلى أن القاطِنَ به ذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج. طرقنا باب الدار، فإذ برجلٍ عجوزٍ – كما يُطْلَقُ عليه (الحاج) – حيث انهالتْ علينا المصافحات باليد، وتهلل وجهه فرحًا بوجودنا، وسَمَحَ لنا بتصويره صورة فوتوغرافية. وقد انتشل حياته من أجل أن يصلي في مكة واستبدلها بالحياة في الدنيا [١]، قبل أن توافيه المنية، فهو الآن يستعيد روحه في قريته برضاء نفس وسعادة، مؤمن من غير ريب أنه سيسعد أيما سعادة في الجنة، عندما تنتهي أيامه المتبقية في الحياة الدنيا.

ثم دعونا (المُعَمَّر) – وهو عجوزٌ بلغَ من العمر مائة وعشر سنين – ونظرًا لأنه أفنى حياته كلها في خدمة عائلة مُضِيفنا، فصار من أهل الثقة والمقربين جدًّا لنا. وإلى وقتٍ قريبٍ، كان يتمتع بصحة جيدة، لكنه الآن أصم، وأعمى تقريبًا؛ لأنه صار يعتمد اعتمادًا كليًّا على ابنته التي صارت شديدة الارتباط به. وكان من عادته أنه لَمَّا كان يعلم أنَّ أحفاد سيده سيزورونه، يُقَبِّلُ يد صديقي (عمر)، ويدعو الله كثيرًا له ولإخوته بالبركة.

---

(١) استبدلَ فلانُ الآخرةَ بالدنيا؛ أي ترك الدنيا من أجل الحصول على الآخرة.
أحببتُ أن أنوه هنا على هذا الأمر؛ لأن كثيرًا جدًّا من القراء يعتقد العكس، فما بعد حرف الباء هو المتروك.



صورة المُعَمَّر وابنته وهما ينقيان أكواز الذرة عند باب الدار.



على أرض القرية الخضراء

ومما لا شك فيه أنَّ فلاحيَّ مِصر بلغوا من الكِبَرِ عِتيًّا. تحدثتُ إلى مع مُسِنٍّ بلغ من العُمر مائة واثنتي عشر سنة، في طره – بالقرب من القاهرة – والذي كان بكامل قدراته وصحته غير أنه مصاب بمرض مزمن في عينيه. ومن خلال حديثي إليه، اتضح لي قوة ذاكرته التي ما زالت تتذكر عصر محمد علي باشا وتوليه حكم مِصر. وبطبيعة الحال سألتُه عن سِرِّ عمره الكبير، وفاجأني بجوابه الذي كان إيجابيًّا مثل كافة كبار السن والمُعَمَّرين: (حياة صالحة، وعمل شاق [أعملُ إلى أن بلغتُ أكثر من مائة سنة]، والصلاة على وقتها، والحرص الشديد على الصيام. أؤمنُ بالصيام، والآن إن لم يكن لدي عمل، فإني أصومُ يومين من كل أسبوع، وما زلتُ أصوم شهر رمضان؛ فإن إيماني بالله شديد، وبطبيعة الأمر لا أقلقُ أبدًا). كما أن لدي صديق عظيم من المُعَمَّرين من مُلَّاكِ الأراضي في صعيد مِصر، بلغ من عمر مائة وثلاثين سنة أو يزيد، وهو محل ثقة واحترام من جانب الأسرة التي أفنى عمره في خدمتها ردحًا من الزمن. ويسافر هذا المُعَمَّرُ إلى القاهرة من حينٍ إلى آخر، لكن بسبب وقوع حادث، فإن خمس سنوات من ذلك الحين لم تظهر من قوته ونشاطه سوى القليل منهما. لقد حافظ على قوة عضلية رائعة حتى تجاوز المائة والعشرين سنة.

وفي زيارةٍ أخرى لرجل من المُعَمَّرين، رأيناه يُؤذِّنُ في الناس بالصلاة أعلى مئذنة المسجد. كان العجوزُ كفيفًا؛ وسبب اختياره كفيفًا أن الشعوب العربية والإسلامية تكره التجسس أو التصنت على حُرمة البيوت. قال النبي محمد ﷺ: «وَمَنِ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ أَوْ يَفِرُّونَ مِنْهُ صُبَّ فِي أُذُنِهِ الآنُكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [1].

---

[1] صحيح البخاري – كتاب التعبير – باب مَن كذب في حلمه – حديث رقم ٧١٢٨، والحديث من طريق عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

فمن المُتَصَوَّر أن التنسيقات الداخلية لبيوت الفلاحين في غاية البساطة، لكن معظمها يحتوي على حُجرتين؛ ليس لديهم كراسي وطاولات، ولا يريدون أيًّا منهما، بل ويجلسون على أرضٍ صلبةٍ مصنوعة من الطين براحةٍ أكثر مما نجلس نحن على الكراسي. كما يوجد عدد قليل من الأواني الخزفية، ووعاء خشبي كبير مُسطَّح يُصْنَعُ عليه الكعك، وقُلَّة أو قُلَّتين لحفظ الماء. إضافةً إلى منضدة دائرية تقف على ارتفاع بضع بوصات يُسَمُّونها (السفرة)، حيث يلتف أفراد الأسرة حولها، ويستمتعون بوجبتهم عن طريق الغمس الخفيف في إناء الطعام. هذه هي جميع الأثاث أو الأواني التي تحويها بيوت الفلاحين.

إن ملمحًا من الملامح التي تتميز بها بيوت الفلاحين وجود التنور (الفرن) في البيت، حيث أن كل سبل الراحة يفتقرون إليها في ليالِ الشتاء إذا ما لم يكن التنور في بيوتهم. فبينما كنا نسير – ذات يوم – مع صديقي (عمر)، فإذ بصبيٍّ تعلَّقَ بذراع (عمر) يطلب منه أن يذهب معه إلى أحد البيوت الفقيرة. كان الصبيُّ يتوسل إليه بشدة، ثم اختفى بعض الوقت، وعندما لَحِقَ بنا ثانيةً، أخبرني بهدوء أن السيدةَ العجوزَ – التي تربَّى عمر في كنفها صغيرًا – مريضةٌ، وعندما سَمِعَتْ بقدومه إلى القرية، أرسلتْ فيه طلبه. فلما ذهب إليها (عمر)، وقَعَدَ بجوارها على الأرض، بكتْ من الفرحة لعودته من أسفاره من البلاد الأوروبية بعد أن غاب عن قريته مدة سنة كاملة، وظنَّتْ أنه لن يقعد بجوارها على الأرض – كما كان دائمًا – تكبُّرًا منه. كانت تلك العجوز تشعر بالبرد بعد دخول فصل الشتاء؛ فهل سيرسل (عمر) لها شالًا ومِلْحَفَةً من القاهرة؟ وقبل كل شيء، الآن أصبحتْ مريضة، ولم تستطع طلب الوقود، فهل سيُصْلِحُ لها التنور حتى تنام ليلًا وهي هادئة البال؟

فقبول (عمر) لطلب السيدة العجوز لهو سمة من سمات العائلات المسلمة الميسورة في أسلوب توزيع الصدقات في مصر. ففي هذه القرية، كان هناك العديد من الأُسَر الصغيرة التي

تعتمد اعتمادًا كليًّا على عطاء البيت الكبير وسخائه وجوده، كما رأينا ذلك مع الرجل المُعَمَّر وهذه السيدة العجوز.

وسرعان ما حلَّ الوقت الفاتِن لغروب الشمس، عندئذٍ يترك جميع الرجال أعمالهم، ويستعدون لصلاة المغرب في المسجد – قبل أن تتلاشى الحُمرة من السماء – فيخرج صوت المؤذن من المئذنة في مشهدٍ بديعٍ وهادئ جميل. فتأتي أفواج من الرجال والنساء والأطفال من الحقول، ليتوضؤوا استعدادًا للصلاة، ولا أنسى أن المجموعة التي كانت ترافقنا يذهب أفرادها كذلك لإقامة الصلاة في المسجد الذي يقع بجوار بوابة منزلنا.

أما صديقي (عمر)، فكان يرتدي جلبابًا بسيطًا، وذهب كي يتوضأ وحسب، وليس لتبديل ملابسه. أما إخوته فقد ذهبوا لتبديل ملابسهم الأشبه بالحريرية، وكل واحد منهم ارتدى جلبابًا عاديًّا، ثم ألحفَ كل واحد منهم بمعطفٍ كبيرٍ أسود اللون غير مزخرف، يسمونه (العباءة). عليَّ أن أذهب معهم إلى المسجد لأقعد، وأرى كيف يصلون، وإذ فوجئتُ بِمَنْ أعارني عباءة لأرتديها فوق ملابسي كي تقيني من البرد.

ومن المثير للفضول والغرابة أنه بينما نحن في الغرب نتزينُ بأجمل الزينة لأجل متابعة أعمالنا المسائية، إلا أن المسلم – في نهاية اليوم – يخلع كافة ثيابه المُزخرفة والأنيقة. وسبب ذلك بسيط، كما شرح لي مَن كنتُ في صحبتهم لاستكشاف القرية: (من الأفضل أن يُصلي المسلم في ثيابٍ بسيطة غير مبهرجة أو شديدة الأناقة؛ لأن الفقراء يصلون بجانبه، والجميع يقف أمام الله دون تمييز بين غني وفقير على قدم المساواة؛ فإننا نقف للصلاة ونحن في حضرة الله بالمسجد). وبعد الصلاة كذلك، عندما ينتهي المسلم من واجباته اليومية، ولا يُتَوَقَّعُ من أي زائر يأتي من بعيد لاستقباله بملابس الشيخ، فارتديتُ ملابس أخرى متواضعة تشعرني بالراحة أكثر.

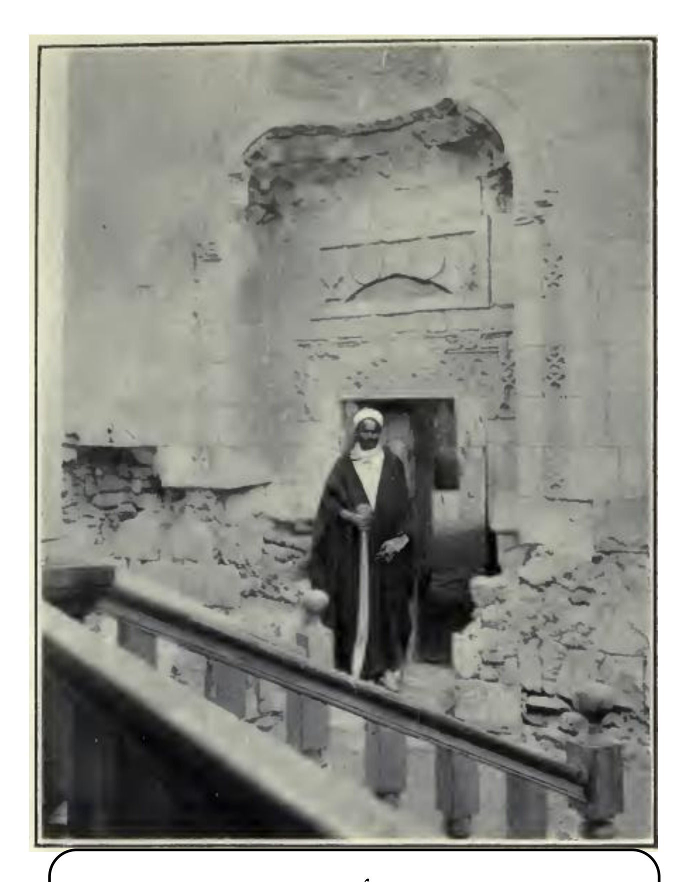
وعقب وجبة العشاء، وعندما بدأتُ الاتكاء على أريكة في صالون المنزل، أدركتُ فعلًا أن الملابس مريحة بلا مبالغة.

ذهبنا إلى المسجد، فأُضِيء قنديلين ضوؤهما خافت، فخلعتُ حذائي، وقعدتُ خلف صفوف المصلين الصغيرة، الذين يؤدون صلاتهم خلف الإمام بكل إجلال وتوقير، وكل معاني البساطة العميقة كانت تقبع في هذه البقعة من الأرض. وبعد انتهاء أكثر الرجال عملًا وكدحًا من عمله الشاق، فإنه يقف متواضعًا على الأرض بجوار أصدقائي من أصحاب الوجاهة؛ فالكل يصطف صفًّا واحدًا في مشهدٍ عادلٍ بين الجميع؛ فلقد شاهدتُ البراهين على ذلك. وتتكون صلاة المغرب من ثلاث ركعات، وركعتي السُّنة بعد أن ينتهي الإمام من إمامة المصلين في صلاة الفرض.

فلم يصدر أي اعتراض على وجودي بالمسجد أثناء الصلاة. وعند قيامي – بعد انتهاء المصلين من الصلاة – إذ بأحد المصلين أمسك كف يدي، ودعا الله لي بصفاء نفس.



صورة مؤلف الكتاب وهو يرتدي ملابس الشيخ



صورة الإمام أمام باب المسجد
في يده عصا خشبية يتكئ عليها الخطيب على المنبر.

أمستْ الممرات الضيقة مظلمةً وغريبة ومجهولة؛ حيث الظلام الدامس حلَّ على القرية. ثم سمعتُ أصوات الأولاد يلعبون وقت الغسق، ففهمتُ أن هذا الوقت يجتذب أطفال القرى في مصر، كما في المناطق الريفية الهادئة عندنا في شرق أنجليا [١] حيث قضيتُ طفولتي. جاء أحد الأولاد يخبرني عن ألعابهم المفضلة التي يلعبونها في الساعات الأولى من الليل قبيل النوم، مثل: لعبة (الحي يا واد الحي) [٢]. فمن بين جميع الأماكن، فإن القرية المصرية تصلح لمثل هذه الألعاب في ممراتها الضيقة وزواياها الحادة، وفي ظلمتها الدامسة تحت ضوء القمر الخافت في الأفق.

وفي سهراتٍ أخرى حول نار مُوقَدَة خارج أحد المنازل على الأرض الخضراء، يُسْمَحُ بجلوس الأطفال حولها، وشواء البطاطس والمكسرات، والاستماع إلى حكايات سعيدة أو عاطفية مسلية التي تدور أحداث هذه الحكايات حولهم. إن ذلك يؤكد أن الطبيعة البشرية، وأعني الطبيعة البشرية الطفولية، هي نفسها – إلى حدٍ كبيرٍ – في جميع أنحاء العالم.

وكان في كثير من الأحيان يحكي لي أحد أصدقائي عن فترة طفولته في إحدى القرى المصرية الصغيرة: كان صبيًّا منطويًا على نفسه، وكان أغلب الأوقات يأخذ طعامه ليأكله بمفرده في كوخٍ في الحديقة، والذي وصفته عائلته بأنه سجنه. أطلق عليه أبوه (الصديق الوحيد)؛ لأنه كان يتجول في الحقول وحيدًا، يتغنَّى بالشعر، أو يتلو آيات من القرءان الكريم.

---

(١) هي منطقة في شرق إنجلترا، والتي تقع محل مملكة شرق أنجلز الأنجلو ساكسونية القديمة.

(٢) هي لعبة مصرية قديمة لا تختلف كثيرًا عن الاستغمّاية، ولكنها أكثر مراوغة عنها، وكلمة (الحي) هنا بمعنى "الأفعى" أو "الآف باللغة الصعيدية القُح"، وهى أحد ألعاب المسّاكة أيضًا، لكن تعتمد في الأساس على المراوغة والمطاردة، وفيها يحاول المسّاك لمس أي من المتسابقين وعند اقتراب المسك بأحد اللاعبين، ويشعر بأنه سيتم لمسه يهتف إلى زملائه في الفريق "الحي يا واد الحي"، ويقف ثابت دون أن يتحرك، وفي هذه الحالة سيكون من غير المؤثر لمسه، ثم يتحرك آخر تجاهه لنجدته بأن يركض نحوه أثناء ابتعاد المسّاك عنه ويلمسه ويهتف "قتلت الحي" وهكذا، وعلى المساك أن يلمس أي متسابق وهو بعيد عن حالة "الحي".

ومما لفتَ انتباهي وجذبني من الآيات القرءانية التي كان يتلوها صديقي في حب النبي صلى الله عليه وآله وسلم للطبيعة: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ۝٢﴾ [1]، فإني أُورِدُ هاتين الآيتين على سبيل المثال، وحكى لي كيف أن هذه الآيات المثيرة لولعه بالوِحْدة والعُزلة في فترة طفولته، وكيف أن هذه الآيات وغيرها كانت تغذي فيه الشعور بالسمو الروحي أثناء التأمل في الطبيعة. وفي وقتٍ لاحقٍ من حياة (إسماعيل)، تَعَرَّف إلى سيرة (ويليام ووردز وورث) [2]، وكثيرًا ما كنا نتبادل الأبيات الشعرية المفضَّلة من أشعار شاعر الطبيعة، إلا أنني أقرُّ أنه لم يكن الرجل الإنجليزي الضليع المُتَمَكِّن في عمل الإنسان الذي يمثل أيقونة الشموخ والاعتزاز في الأدب الإنجليزي.

وإذا ما نُودِيَ على الأطفال الصغار إلى المنزل، وهم يلعبون ألعابهم المسائية، انقطعوا عن اللعب واللهو؛ لأن طيب رائحة طهي الطعام والخوف من الجِنِّ كافيان جدًّا لأن يجعلا الهدوء والسكوت المُطْبِق يُخَيِّمان على القرية بأكملها. لكن من المؤسف حقًّا أن المسلم – وعلى وجه الخصوص الفلَّاح – أن يخشى الجِنَّ، وأن يسير وحده في شوارع مظلمة ليلًا. فقد قال القرءان بشأن الجِنِّ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ۝٥٦﴾ [3]، فالجِنُّ من المخلوقات المخيفة، وقال: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ۝٢٧﴾ [4]، فهذه المخلوقات ليست كلها خبيثة طالحة؛ بل بعضها طالح وعدو للإنسان، وخُلِقُوا بهيئة مخيفة.

---

(١) سورة الليل: ١، ٢

(٢) ويليام ووردزوورث (William Wordsworth): شاعر إنجليزي (١٧٧٠م: ١٨٥٠م)، شغل منصب شاعر بلاط المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وأيرلندا.

(٣) سورة الذاريات: ٥٦

(٤) سورة الحجر: ٢٧

ففي وقت الغسق، تخرج هذه المخلوقات المخيفة من أماكن اختبائها، وتتصور بصورة الأرنب البريِّ الأبيض، وتعدو عدوًا سريعًا، وتسلك مجاهيل الطرق في القرية، وتنغمس في شهواتها ونزواتها – الصالح منها والطالح على حدٍ سواء – مع الإنسان، كما تفعل ذلك أشباحُنا وجِنيَّاتُنا في بلادنا.

فإذا لم تكن تؤمن بوجود الجِنِّ، فما عليك إلا أن تنظر إلى السماء، وتراقِب حركة (النيزك/ الشِّهاب) – كما تسميه – وهو عبارة عن حجر صوَّبته ملائكة السماء تجاه الجن الرجيم الذي يحاول أن يخترق السمع. تأمل قول الله في القرءان: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ۝١٨﴾ [1].

كانت وجبة العشاء في انتظارنا في منزلنا. وبعد تناولنا وجبة العشاء، اتجهنا إلى حجرة معيشتنا (أتصورُ أنه ينبغي يُطْلَقَ عليها هذا الاسم)، وكانت هذه الحجرة واسعة تحتوي على أرائك متعددة تحيط بجوانب الحجرة، وسجَّادة جميلة على الأرض، وطاولة مزخرفة في المنتصف موضوع عليها مِصباح الزيت. وقد اجتمع – هنا – وجهاء القرية وأعيانها – كما هو معتاد – لتجاذب أطراف الحديث، بعد شرب القهوة وتدخين السجائر.

وقد يسألُ أحدٌ سؤالًا: ما الذي كان يتجاذبون أطراف الحديث حوله؟ سيُتَذَكَّرُ أن هذا المنزل الفخم يوجد به جريدة يومية يُؤتَى بها من القاهرة منذ أن أُنْشِئَ البريد. وعلى الرغم من أن الرجال من جميع الفئات الاجتماعية في المساء، إلا أن الفقراء البسطاء – مَن لهم رأي – كانوا على استعدادٍ للاستماع إلى ما كان الوجهاء والأعيان يتجاذبون أطراف الحديث حوله، وقد أثنى

(١) سورة الحجر: ١٦، ١٧، ١٨

النبي صلى الله عليه وآله وسلم على السفر، بنفسه، من أجل التمتع بمجالسة مَن يُحْسِنُون القراءة والكتابة، والتعلم منهم قدر المستطاع.

كانت طبيعة ما يدار في حديث الوجهاء والأعيان غير اعتيادية وفريدة من نوعها. ولذلك؛ أنا على اقتناعٍ أنَّ الشعوب الشرقية منطقيون؛ وذلك يرجع إلى سببٍ وهو أن ما يتجاذبون أطراف الحديث حوله هو طرح الأسئلة الأخلاقية والمواضيع المتعلقة بالدين، والإجابة عنها، وربطها بالتاريخ القديم، وبالأخص تاريخ الخلفاء الراشدين. فكل ما يتعلق بحياة الخلفاء والصحابة هو محل تقدير واحترام واعتزاز، وهذا يؤكد أن أسلوب تداول المعلومات التاريخية حول الخلفاء الراشدين وغيرهم يتيح الفرصة أمام الشباب المسلم للتعرُّفِ على زمن هؤلاء العظماء، وأقوالهم، وأفعالهم، مقارنةً بالشباب المسيحي.

إن اتهامات الغرب لدين المسلمين مفهومة جيدًا، وكانت الأسئلة اللانهائية لاستنباط رأيي الشخصي حول تسامح المسلمين، والحث على التعليم في زمن زهو الإسلام وعظمته، وحال شعوبهم في الزمن الحاضر تحت الحُكم الفِرنسي في الجزائر. فما هو رأيي في العدوان الإيطالي والإسباني والألماني على الدُّوَلِ الإسلامية؟

وعليه؛ هل استقرَّ في يقيني أن الفضائح المروعة التي انتشرتْ ضد المسلمين في زمن الحروب الصليبية – لإثارة التعصب الديني المسيحي – فعلوها حقًّا؟ هل استقر في عقيدتي أنهم دنسوا الأماكن المقدسة التي يُقام فيها ذكرى ربنا يسوع في القدس؟ هل استوعبتُ الفرق بين عمر بن الخطاب الذي دخل هذه المدينة المقدسة بسلامٍ والحاكم المسيحي كان بجانبه، وعندما دخل الصليبيون القدسَ، وكتبوا تقريرًا رسميًّا إلى البابا زعموا فيه متبجحين أن خيولهم غرقت في دماء المسلمين؟ هل جزمتُ يقينًا أن المسلمين هم مَن أحرقوا مكتبة الإسكندرية الكبرى؟ لقد كان المسلمون سعداء حقًّا حين رأوني أحمل بين يدي كتابًا كنتُ أقرأه وقتئذ كتاب بعنوان:

(فتح العرب لمصر) [1]، حيث صرَّحَ الدكتور بتلر أن الأمر كله لصالح المسلمين باقتدار، والذي يُوَثِّقُ فيه مُؤَكِّدًا أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يكن مُتَّهَمًا بتهمة حرق مكتبة الإسكندرية.

(١) العنوان الإنجليزي الأصلي (The Arab Conquest of Egypt) من تأليف الدكتور: ألفريد جوشوا بتلر، ترجمه إلى العربية: محمد فريد أبو حديد بك – من إصدار مكتبة مدبولي بالقاهرة سنة ١٩٩٦م.



أسرة مصرية تتناول الطعام

يقف الخادم ومعه القُلَّة التي يشرب منها الجميع بعد انتهائهم من تناولهم الطعام.

ثم تغيَّر حديثنا إلى ما تتداوله الصحف اليومية، فاشتدَّ الحديث بينهم بحماسة تجاه حركة حق الاقتراع في إنجلترا، وكان أحدهم قد حاول أن يبرهن على الاشتراكية يُبَشَّرُ لها الآن في إنجلترا، قائلًا:

(يا إلهي! يمكننا الآن أن نُحَرِّكَ الشعب المصري، ونُوقظه من سباته، حتى يطالب الفقراءُ بحقهم العادل من الثروة التي تتدفق الآن في أيدي ثُلَّة من الناس).

إلا أن الحاضرين شرحوا له كيف أن مصالحه الشخصية ستسوء؛ فهو من مُلَّاكِ الأراضي، فوافقهم بسخطٍ على ما قالوه؛ لأنه كان يؤمن أن المبدأ فوق أية اعتبارات أخرى. فهو رجل نشأ في قرية بسيطة، في بلدٍ ظهرتْ للعيان من العصر الإقطاعي بصعوبة، فأعلنتْ الإضرابات والثورات، وتحيزتْ للعصيان النسائي!

وقال أيضًا:

(أتمنى أن تتمتع مصر بالحرية مثل التي موجودة في إنجلترا، وحتى في ذلك الوقت، كانت حريصة أشد الحرص على الاستمرار في القتال، كما يفعل الشعب الإنجليزي من أجل المزيد من التقدم لصالح جميع الناس. فكل شيء في هذا العالم في قبضة الرأسماليين والأغنياء وحسب، ويستخدمون البشر كأدوات لتحقيق مآربهم الخاصة).

لقد تأكدتُ يقينًا أن هذه الآراء كانت صادقة، وغير مألوفة في مثل هذه البيئة. وحسب ما أتذكرُ أن شيخًا مصريًّا قال عن الاشتراكيين:

(سيحطمون ساعتك الجميلة، وسيعطونك جزءًا مكسورًا منها فقط، وسيحدث هذا مع كل الأشياء).

فإن حُسْنَ الإدراكِ وحِدَّة الطباع في المناقشة – في مثل هذا المجتمع – جديران بالثناء عليهما. ومهما كان التضارب في الآراء، نَدُرَ التشاحن والتنازع بينهم. وإذا مال أحدنا إلى الحِدَّة

في الكلام قليلًا – على غير المعتاد – فإننا نجد أن الأخ الأكبر في المنزل – وهو غالبًا ما يكون قد تجاوز فترة الشباب – يقول له بصوتٍ خافت:

(صلِّ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم)،

فيرد عليه المُجادِلُ بقوله:

(عليه أفضل الصلاة والسلام).

ثم يعود إلى حالة الاعتدال والهدوء في التعامل، وذلك لأن الصوتَ الجهوريَّ أمرٌ مُسْتَنْكَرٌ في شريعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. إن ما رصده المستشرق الإنجليزي والمترجم والكاتب إدوارد ويليام لين Edward William Lane لحالة المصريين المسلمين اليوم كما كانت عندما كتب عنها؛ فالمصريون المسلمون – عمومًا – مفعمون بالحيوية جدًّا ودراماتيكيون في كلامهم، ونادر ما تصحب حالة سرورهم وبهجتهم صخبًا.

وناقشتُ كثيرًا مع ذلك الرجل – الذي تحدث عن الحرية والاشتراكيين – عن أمور الحياة الجادة رغبةً مني في فَهم السِرِّ وراء الهدوء والوقار اللذين يُميزان المسلم الحقيقي. فقال لي بإيمان قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ [1] على عباده، كما فعل مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حالة الخطر كما جاء في قول الله: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ [2]، بل ويحث على عقيدة أن مَن ظُلِمَ في الدنيا، فإن الله سيجبره عاجلًا أو آجلًا: في الدنيا أو في الآخرة؛ فهو العدل المطلق، حتى الشهداء، الذين لهم ما لهم من الدرجات العلا، ليسوا استثناءً من العدل الإلهي.

(١) سورة التوبة: ٤٠

(٢) سورة النحل: ١٢٧

ومن الأعراف التي عرفتُها عنهم – وهي تشبه عادة إنجليزية أيضًا – أنه إذا مرَّتْ جنازة أمامهم، انقطعوا عن حديثهم هُنَيْهَة، وبعد صمت تام، يقول أحدهم:

(وحدوه!)

فيكرر الحاضرون بصوت خافت:

(لا إله إلا الله!)

ثم يستأنفون حديثهم.

وقمتُ بتدوين كافة الأمثلة الشعبية التي سمعتها في كلامهم وأحاديثهم، فعموم كلام أهل الشرق غني بالأمثال الشعبية؛ ففيها تأثير بديع في النَّظْمِ الشعريِّ. وإليكم بعضها [1]:

١. عَلَى وِشَّكْ يبَانْ يَا مَدَّاغ اللّبَانْ.
٢. خُدْ صَاحْبَكْ عَلَى عِيبهُ.
٣. اِللِّي يِصْعَبْ عَليكْ يِفْقِرَكْ.
٤. مَا كُل مِنْ لَفِّ الْعِمَامَة يْزِينْهَا، وَمَا كُل مِنْ رِكِبِ الْحُصَانْ خَيَّالْ.
٥. فِي الْوِشِّ مْرَايَةْ وِفِي الْقَفَا سِلَّايَةْ.
٦. عَدُو قَرِيبْ وَلَا حَبِيبْ بِعِيدْ.
٧. حُبْ الوَطَنْ إِيمَانْ.
٨. الْمِيَّة تِكَدّبْ الغَطَّاسْ.
٩. القِرْد فِي عِين أُمه غَزَال.

❖❖❖

---

(1) قمتُ بعملية الترجمة الارتدادية Back Translation، ثم شَكَّلْتُها وفقَ النطق في العامية المصرية.

الفصل الثالث

الحديث عن الوطنية، وظيفة اللورد كرومر، العبودية، وغيرها.

«يجب على المرء القدوم إلى الشرق لفَهم المساواة الكاملة. فإنه لا يوجد أي سبب وجيه يجعل من الصبي البسيط الذي يركض خلفي يمنعه من أن يكون رجلًا عظيمًا؛ وذلك لأن جميع المسلمين متساوون بطبيعة الحال. فالمال والطبقات الاجتماعية يُنظر إليهما باعتبارهما عوارض حادثة، وأرى أنهم ينظرون إليَّ بعين الاحترام والتقدير؛ لأني جلستُ مع الفلاحين، وعاملتُ كل واحد منهم كما يُعاملون بعضهم البعض».

غوردون؛ السيدة لوسي داف، **رسائل من مصر**

كام من المتوقع أن نلتقي – في مثل هذه التجمعات المسائية – بشابٍ وطنيٍّ؛ فالكثير من الشباب المصري ينتمي إلى هذا المذهب السياسي (الوطنية). وجوهر ذلك أنهم يؤمنون أن بريطانيا العظمى ليس لهم حقوق في بلادهم، وأنها عدو قاتل، وأفعالها لا تدل على الخير أبدًا، وتنتهك كل بند من بنود حُسن النية بالبقاء في مصر دون تفاوض أو شروط. لذلك؛ ينبغي على بريطانيا أن ترحل من مصر دون رجعة إلى الأبد.

يبلغ شابَّنا الوطني التاسعة عشر أو ما يقرب من ذلك، وهو طالب في إحدى المدارس العظيمة بالقاهرة؛ لديه قدر عالي من الذكاء، وجُلّ اهتمامه مُنْصَّبٌ على القضايا الدينية والسياسية، وواثق من آرائه، ولباقته ممتازة، ومهارته في اللغة الإنجليزية رائعة. وقد نتج عن اتجاهه السياسي – الذي شغل باله وتفكيره – إلى نزعة رجعية فضولية، مما أدى به إلى الدفاع عن جامعة الأزهر كما هي الآن، مع تجاهله أساليب العصور الوسطى للضروريات الحديثة؛ بل إنه تجاهل أيضًا كافة الدراسات التي اشْتُهِرَ بها الإسلام قبل التدهور الذي حلَّ على المسلمين

في فترة معينة. إضافة إلى أنه يرى أن الإصلاحات الجديدة التي أدخلتها الحكومة في الجامعة الأزهرية بمنزلة الفضيحة والعار؛ لأن الإصرار على تدريس العلوم الدنيوية هو تحوُّل غير أمين عن الهدف الرئيس لجامعة الأزهر. فهو يرى أن العشر سنوات المقررة على طلبة الأزهر يجب أن تُكَرَّسَ لدراسة الدين والفقه الإسلامي، والعلوم القرءانية، وعلوم اللغة العربية.

كان من غير المُجْدِي النقاش حول توسيع دائرة التعليم وفائدته على علماء الدين الإسلامي؛ لأنها من باب الثقافة العامة التي من شأنها تأكيد المعتقدات الدينية وتوثيقها توثيقًا دقيقًا، وفَهمها فَهمًا أشمل وأوسع أكثر من التركيز على موضوعٍ واحدٍ والحفظ الذي أصبح عُرفًا سائدًا الآن.

أفصح لي هذا الشاب الوطني المتحمس عما يُضْمره بصدره عن كراهيته للشعب الإنجليزي؛ لأنه كَرِهَ حُكمهم في البلاد، وبغضه لإجبار الشباب المصري على تعليم اللغة الإنجليزية قبل أن يحصل على المؤهلات اللازمة لتأهيله في العمل الحكومي.

وعندما سُئِلَ عن وجهة نظره فيما يتعلق بشأن الحُكم البديل بعد رحيل الإنجليز عن مصر، وصارت مصر غير واقعة تحت الحماية البريطانية، فأجاب قائلًا:

(تركيا بالطبع، وينبغي على مصر أن تتطلع إلى استعادة حُكم تركيا ثانيةً، باعتبارها دولة إسلامية).

لكن، هل أدرك هذا الشاب ضعف تركيا وعجزها؟ هل سمع يومًا عن كلمة (التقسيم)؟ لقد كان يؤمن أن مثل هذا الكلام مجرد تُرَّهات وكلام الحمقى!

ولما ظهر لي جليًّا إلى درجة لا تُصدق من الارتياب التي تخدع هؤلاء الناس، أكدَ لي أن باعث إنجلترا الوحيد هو أن بريطانيا أرادتْ أن تُزكِّي نفسها أمام تركيا وخليفة الإسلام؛ لأننا كنا خائفين من نفوذه على مسلمي الهند وأجزاء أخرى من إمبراطوريتنا.

فهو لم يعد بإمكانيه تصديق أن مثل هذه الفكرة لم يكن لها أي وجود نهائيًّا في ذهن الإنجليزي العادي أكثر مما كان يدرك أنه من خلال التوافق البريطاني الأخير من تركيا وتطلعاتها – بعد الحرية السياسية – يمكن أن نتحرك تحت ظل باعث صادق ومخلص. وعلى أية حال؛ فإن كراهيته الشديدة كانت من نصيب الرئيس السابق (روزفلت) لأسبابٍ لا داعي لذكرها الآن.

هذا هو الشيء الذي امتلأت به الصحف المصرية اليومية ليقرأه الشباب بشغف، وهو عبارة عن حديثه المستمر عن (خوف) الحُكَّام الإنجليز، والذي سيطيح بحُكمهم ورفع أيديهم وقمعهم عن البلاد. وفي جميع الحالات، فإن هذا الأمر يحث الشباب المصري على عدم التنازل عن أي شيء يتعلق بقضيتهم الوطنية، وعدم التهاون فيها، إلى أن يتم تعديل قانون العقوبات التي يتعرضون لها من خلال الإنجليز.

ارْتُكِبَ خطأ فادح، ومع ذلك، أنا مقتنع تمامًا بكلامه، وذلك من خلال تعديل القوانين أو سَنّ أخرى لصالح هؤلاء الشباب المصري الوطني. وعلى النقيض تمامًا؛ يوجد شريحة أخرى من الشباب يتميزون بالهدوء، والتفكير العميق، بل وسافروا إلى بلاد أخرى كثيرًا أيضًا، ويدركون مدى حماقة أراء الفريق الآخر من الشباب الوطني المتحمس، إلا أنه رغم ذلك كله، لا تزال بينهم صداقة حميمية مهما اختلفوا. وأي إنسان يعرف الشخصية الشرقية سوف يُدرك أن في مثل هذه الصداقة الحميمية توجد ممانعة شديدة لدى كافة شعوب الشرق من إثارة الاستياء بين الناس المختلفين فيما بينهم.

ففي واقع الأمر، قال لي هذا الشاب إنه لم يتحدث مع أحد من المصريين قط في مثل هذه المواضيع (وأنت الرجل الإنجليزي الوحيد الذي يمكن أن أعتبره صديقًا لي إلى الأبد)؛ لأن رفاقي يرون أني خائن لبلدي إذا قلتُ – ذلك أنني لا أحب إنجلترا أو الأشخاص الذين ألتقي

بهم من الطبقة الحاكمة للبلاد – ما زلتُ أدركُ ديوننا لها، وضرورة بقائها إلى جانبنا، وأنه من الأفضل للجميع أن يعمل سويًّا إذا تمكنَّا من ذلك.

إن نزاهة الرجل الإنجليزي، وإصراره على هدفه، وبغضه للاستبداد الشرقي، والسعي وراء العدالة للجميع، وكراهيته للفساد والمكائد السوداء التي تُسمم حياتنا العامة، كل هذه الأشياء صمد اللورد (كرومر) من أجلها مثل الصخرة، وكل هذه الأشياء نحبها ومحل إعجابنا. تفردك، وعُنْجَهيتُك، وروح نادي (Turf) – وهو مكان لالتقاء أعضاء الحكومة الإنجليزية في القاهرة، وهذا الاسم مُضَلِّلٌ لا علاقة له بـ (Turf) – وخيلاؤك الطبقي البغيض، كل هذا نمقتها ومحل كراهيتنا.

وفي إحدى الليالي الساهرة، مكثنا في المسجد لنتحدث، حيث يُسمح بانعقاد اجتماعات القرية فيه؛ فالمسجد هو المكان المناسب لكل ما يتعلق بالحياة. فمن هنا تبدأ مسيرة مهمة، وهنا نهايتها أيضًا. ففي الأيام الخوالي، ركعت ناقة الرجل أمام باب المسجد بسجيتها، وفي أوقات الخوف وأوقات الشكر، يلتقي الناس بعضهم ببعض. إلا أن صديقي قال لي وعلى وجهه الحزن:

(الآن، إن المقهى – وخاصة في المدن – هو الذي يحل محل المسجد!).

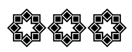
كان من المثير للاهتمام الاستماع إلى حديث أعيان القرية الصغيرة، حيث كنا نقعدُ على حصائر المسجد على ضوء الشموع الخافت. لم يكن الحديث دينيًّا، رغم أن الحديث كان يتخلله نصوصًا من القرءان، فكان حديثهم عن أضرحة المشايخ القدامى في ذلك الجزء من البلد، وعن كراماتهم بعد موتهم.

تذكروا قولي هذا: تذكروا الأيام المروعة للكرباج أو النبوت؛ فبعضهم ليسوا أكبر من أن يتحملوا الندبات الخلفية، وهذا يدل على أنهم لم يكونوا من أصحاب الثروات الضخمة.

فلم يكن من غير المعتاد أن يهرب الرجال التلال هربًا من ابتزاز جامع الضرائب، ويقتطعون ما يقرب من نصف حياتهم اليومية جوعى بسبب قُطَّاع الطرق.

كانت هناك ذكريات مؤلمة، مثل: مداهمات السُّخْرَة، أو عصابات العمل القسري، وكذلك الجيش، عندما تركوا الآباء منكسرة قلوبهم حزنًا على أبنائهم، وهم يعلمون أنه من المستحيل – تقريبًا – أن يروا أبناءهم ثانيةً؛ لأنهم يُؤخذون إلى أسوأ أنواع العبودية.

وإذا كان مثل هؤلاء الرجال يتذكرون اسم اللورد (كرومر) بامتنان، ومُقرِّين بفضله، فذلك لأنه كان معروفًا بأنه شديد العداوة للفساد، كما أنه الرجل الذي حطَّم آخر سمة السُلطة الفاسدة التي كانت في عصر الباشا قديمًا.





الباب الثاني

تأمُّلات وتحليلات

١) الفصل الأول: حضور صلاة المغرب والإنصات لدرس مُبَسَّط.

٢) الفصل الثاني: في مسجد آخر بالقاهرة.

٣) الفصل الثالث: الدخول إلى أكثر المساجد قدسية، ومشاهدة حياكة كسوة الكعبة المشرفة، والآثار النبوية.

٤) الفصل الرابع: مأدبة، وخَلوة التصوف الإسلامي، والحضرة الصوفية المهيبة.

الفصل الأول
حضور صلاة المغرب، والإنصات لدرس مُبَسَّط

«عندئذٍ يُلقي الإمام – أو الخطيب – شرحًا شفهيًّا قصيرًا للسورة التي تلاها، أو في بعض الأحيان يُلقي درسًا ارتجاليًّا دون تكلف في جَلسته. لقد سمعتُ كثيرًا عن حُسْنِ الفَهم والتطبيق العملي للأخلاق التي يُعْلَنُ عنها في مثل هذه الدروس».

پالغريف؛ ويليام غيفورد، **وسط الجزيرة العربية وشرقها**

من الفروض التي يجب على المسلم فِعلها أن يقيم الصلاة عند حلول الليل؛ أي صلاة المغرب. ففي هذا المساء، سأذهب مع صديقي المصري إلى جامع عثمان كتخدا؛ لأشاهد إقامة الصلاة، علاوة على أنني أرغب في الاستماع إلى أحد الخطباء الشيوخ والإنصات إليه، فسوف يُلقي درسًا لإرشاد المصلين إلى الأخلاق في المسجد. سيُلقي الدرسَ الشيخُ مصطفى أمير.

إنه لشعور غريب أن تترك الشارع الأوروبي الرئيس بالقاهرة، بصخبه وضوضائه، وحشوده العالمية، وبائعيه المتجولين، ومقاهيه الفِرنسية المزدحمة، حيث يتوهم الأفنديُّ أنه يستمتع بأعلى درجات الرفاهية الحضارية سيُقْبِلُ على مشهدٍ متروكٍ منذ آلاف السنين.

ارتديتُ طربوشًا، وأسدى لي صديقي المسلم نصيحة ألَّا أتحدث الإنجليزية؛ لأنه لم يكن من المشهور أن يدخل مسيحيٌّ المساجدَ كما أفعلُ. لكن الأمر كان مختلف معي؛ إذ أَذِنَ لي الشيخُ بذلك، والجهات المعنية تتخذني صديقًا، وهي بذلك ترعاني، ولذلك؛ من الأفضل أن أتجنب المخاطر غير الضرورية حتى لا يُعيق أحدٌ أسئلتي واستفساراتي.

ومن المثير للاهتمام، في ضوء التجارب في المدينة وفي الريف التي أُورِدُها في هذا الفصل، أن أقرأ في كتاب اللورد (ألفريد ميلنر) عن مصر، ما يلي:

(إن الجميع يعرف مدى عمق التحيز ضد وجود مسيحي في المسجد. أما في المدن، فيتلاشى ذلك، بخلاف المناطق الريفية التي يحتدُّ فيها الأمر، فلم يُسْمَعْ أن مسيحيًّا حضر احتفالًا مُحَمَّديًّا [١] أو أثناء صلاة المسلمين).

وعلى أي حال؛ فيمكن أن أقول إنني لم أشعر بأي تخوف من دخول المسجد قط تحت أي ظرف من الظروف، ودخلتُ أكثر الأماكن قداسةً عند المسلمين، حيث لم تطأ قدم غريبة قط هذه الأماكن. ولم أدخل أي مسجد – أثناء صلاة المسلمين – إلا بعد موافقة الشيخ وتشجيعه لي في الدخول. لقد درستُ عُرف المسلم وعاداته كي أتجنب الإساءة إليه دون عِلم مني؛ فكنتُ شديد الحرص على أن أظهر بمظهر الواثق من نفسه غير آبه بغير ذلك، ما لم تظهر مني أي إساءة تجاه المسلمين.

---

(١) هي بديل عن كلمة (المسلم) و(المُحَمَّدية) بديل عن كلمة (الإسلام). والمعنى السلبي لكلمة (مُحَمَّديٌّ) أو (مُحَمَّدِيُّون) إذا أُرِيدَ بها الإساءة للمسلمين: تعني (عُبَّاد مُحَمَّد)؛ أي أن المسلمين يعبدون سيدنا ومولانا رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم، هكذا في نظر الغربيين نظرًا لجهلهم الشديد بالآخر، حيث تنتمي هذه الكلمة إلى معجم القذف والسب والشتم والسخرية، حيث أن الكُتَّابَ اللاتينيين أخذوا على عاتقهم توجيه اتهاماتهم العدائية تجاه المسلمين، وذلك فقط من أجل إشباع حاجة الإنسان الغربي دون أن يترك لنفسه فرصة للتعرُّف على المسلمين وعقيدتهم ودينهم. ومن ضمن هذه الأوصاف والنعوت: السارسين أو الساراكينوس Saracens، الوثنيون Pagans، الكفار Infidels.



قبة ومئذنة

عندما يكون للمسجد قبة من هذا النوع، فهذا يشير إلى أن شخصًا مُبَجَّلًا مدفونٌ فيه

كنتُ هنا، مرتديًّا الجوارب، قاعِدًا على سجادة مسجد كتخدا في شارع كامل – وهو شارع على مسافة قصيرة جدًّا من دار الأوبرا المصرية بالقاهرة –، ولم يُخَلِّصْنا من عتمة المكان إلا ضوء مصباحيّ زيت في قنديلين من قناديل الإنارة، كانا يتدليان من سقف المسجد. فكان الجدران الغنية بالحجر البني، والسجادة قرمزية اللون، والشخصيات الصوفية – الذين كانوا يتزينون بالزيِّ الشرقيِّ – وقدومهم إلى المسجد للصلاة، كل هذا أحدث صورةً رائعة الجمال.

وبخُطى هادئة، قعدنا في مكانٍ منزويًّا قليلًا، بالقرب من أحد الأعمدة الضخمة في وسط المسجد. وبينما كان صديقي يصلي صلاة المغرب، قعدتُ على السجادة. إن هذا المسجد يُصلي فيه كل مُصَلٍّ منفردًا – من غير إمام – عدا صلاة الجمعة بالطبع، والتي لا بُدَّ لها من إمام. وعلى هذا النحو يذهب المسلمون إلى المسجد، ليس فقط للصلاة، وإنما من أجل التدبر والتأمل في أمورهم الروحية أيضًا، أو لاستشارة شيخ، أو مقابلة الأصدقاء للتحدث بصوت منخفض في بعض الأمور. أما بالنسبة لي؛ فقد كان تواجدي بالمسجد غير لافت للنظر. جلس عدد من الرجال في حلقات صغيرة في انتظار الشيخ الذي كان سيلقي درسه عليهم.

إن إقامة الصلاة في المسجد تعمل على تقوية الرابطة بين الأصدقاء. فكما أن غير المواظب على أداء شعائر الإسلام يعرف أين يجد أصحابه على المقاهي، فإن المواظب على أدائها يجعل من المسجد مكانًا لمقابلة الآخرين يوميًّا بانتظام. فلو غاب أحدهم، سأل عليه البقية؛ فربما كان مريضًا، ولو كان كذلك، وجبتْ عليهم زيارته في منزله ومساعدته.

هنا – على أرضية هذا المسجد – دليل على البساطة والمساواة اللذين يسريان في النسق الإسلامي بأكمله، بصرف النظر عن أي تناقضات واستثناءات صارخة. فبالقرب مني مجموعة من الفلاحين يرتدون جلاليبهم الزرقاء، وعلى رؤوسهم قلانيسهم [1] البنيَّة، وبجوارهم شاب

(1) جمع قلنسوة، وهو ما يُلبَسُ على الرأس.

ميسور الحال يرتدي ملابس بنيَّة اللون من الحرير وطربوش على رأسه يحيطها شال أبيض (عمامة)، يبدو من هيئته أنه مُعَلِّم في إحدى المدارس الابتدائية. كما أن عاملًا من أحد الفنادق المجاورة يرتدي قميصًا أبيض اللون وحزام قرمزي. قد يتصور أحدٌ أن هذا مسجد للسائحين أو للمتفرجين، كلا؛ بل إنه مسجد للصلاة.

ثم يدخل شاب أفندي مرتديًا ملابس على الطراز الأوروبي – عدا الطربوش – في صحبة والده الذي كان يرتدي ملابس على الطراز التقليدي القديم؛ أي عمامة وعباءة سوداء. وعلى الجانب الآخر، كان يقف عامل فقير بدأ للتو في الوضوء استعدادًا للصلاة، وآثار ماء الوضوء يتناثر على الأرض من يديه وقدميه. ويدخل المسجد أيضًا رجل غني برفقته اثنان من الخدم، فيصليان على جانبيه. هنا؛ أصبحت حركات العامل الفقير صعبة قليلًا؛ لأنه يصلي بجوار أحد الخادمين، لكنه كان تركيزه الأكبر في إقامة الصلاة، فوضع يديه على صدره لفترة طويلة، وهو يتمتم بكلمات تدل أنه قد أوشك على الدخول في صلاته، فقال: (آمين)، ورفع يديه قائلًا: (الله أكبر!).

علاوةً على أنني رأيتُ اثنين أو ثلاثة من طلبة الأزهر الشريف يدخلون المسجد، على رأسهم العمامة الأزهرية، ويتوسطها طربوش قرمزي اللون، وأن عددًا من البوابين النوبيين المتواجدين في القاهرة بكثرة يجلسون على مقاعد على أبواب جميع المنازل والمنشآت المهمة يرتدون ملابس سوداء اللون.

وبعد فترة، عندما انتهى المصلون من الصلاة، وصل الشيخ، واتجه إلى كرسيٍّ بجوار القِبْلَةِ على شكل مربعٍ إلى جوار أحد أعمدة المسجد، وليس المنبر، فهو مخصص فقط لصلاة الجمعة. نهضنا جميعًا من أماكننا المتناثرة، وجلسنا مرة أخرى حول الشيخ على شكل نصف دائرة، وجلسنا على الأرض جلسة القرفصاء. كان عدد الحاضرين ما يقرب من خمسين مصليًّا.

وكان أحد القنديلين بجوار الشيخ الذي كان يُمَكِّنَه من قراءة بعض الآيات القرءانية. وعقب ذلك شرع في شرحها شرحًا ارتجاليًّا، يمزج شرحه بروح الدعابة والفكاهة الهادئة. وكانت آذان الفلاحين مُصْغِية له.

وبين الفَيْنَة والأخرى، كان الفلاحون يُصَدِّقُون على كلام الشيخ قائلين: (إِيوة!) [1]، وقد ارتسمتْ الابتسامة على وجوههم جميعًا. وكان يتخلل الدرس بعض أسئلة الحاضرين، فكان الشيخ يجيب عليها بدقة وصبر، ثم كان الشيخ نفسه يطرح عليهم سؤالًا من أجل تنشيطهم وحثهم على العمل به أو اجتنابه، فيسأل:

(أليس هذا كذلك؟) – (هل ينبغي أن نقول أو نفعل كذا؟)

فيجيبون بـ (لا) أو (نعم) حسب مقتضى الحال.

فكان موضوع درس الشيخ عن كيفية استخدام الثروة وإساءة استخدامها، وعن إسداء النصيحة للفقراء. فأشار إلى أن الاختلاف في الممتلكات الدنيوية هو أمرٌ يجب أن يكون كذلك، وذلك لحكمة إلهية. فأسدى النصيحة إلى الأغنياء أن يكونوا على حذر من إساءة استخدام أموالهم وثرواتهم؛ لأن الله ﷻ لا يُهْمِلُ شيئًا أبدًا، وأن الثروة هي لخدمة الإنسان فقط إلى نقطة معينة. ثم وَجَّهَ كلامه إلى الفقراء ناصحًا إياهم أنهم قد يكونوا يومًا أغنياء من كنوز الله في الكون، وأنه ينبغي ألَّا يُهْمِلوا السعي وراء كسب الرزق بأي حال من الأحوال، وذكر لهم قول النبي ﷺ: «يَا عَمْرُو نِعِمَّا بِالْمَالِ الصَّالِحِ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ» [2]. ثم حثهم على طلب العلم، وألَّا يتهاونوا فيه، وأن راحة البال هي أفضل من الثراء إذا وُجِدَ من غير راحة البال. كما ذَكَّرَهم

(1) (إِيوة): بالعامية المصرية الريفية تعني (نعم)، وهي بالعامية المصرية في المدن (أَيوة) بفتح الهمزة.

(2) مسند الإمام أحمد – مسند الشاميين رضي الله عنهم – حديث عمرو بن العاص عن النبي ﷺ – حديث رقم ١٥٠٤٠، والحديث من طريق عمرو بن العاص رضي الله عنه.

بجانب الصدقات، واستشهد بقول الله في القرءان: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ١٣٤﴾ (١).

كانت مدة درس الشيخ خمسة عشر دقيقة، وبعد أن انتهى من إلقائه، تلا سورة من القرءان، فدعا بدعاءٍ، فرُفِعَتْ أيدي الحاضرين إلى السماء، ثم قالوا في صوتٍ واحدٍ: (آمين)، ثم مسحوا بأيديهم على وجوههم عقب انتهاء الدعاء. وذهب الشيخ من حيث جاء، وخرجنا من باب المسجد، فإذ بنا أمام عالَمٍ آخر من الحداثة، مكتظ بالناس، وأغلب مَن فيه من السائحين والمتفرجين، ولم يخطر ببال أحدهم أنه من المحتمل أن يكون الرجل الذي كان يبتسم ويوقِظ الناس من غفلتهم في المسجد قد جاء من مشهدٍ من زمنٍ وَلَّى، ولم يتغير منه إلا القليل.

وقبل أول ضوء يسطع في سماء الشرق، سمعتُ كثيرًا صوت المؤذن يكسر هدوء الليل ويطوف في هوائه من مئذنة المسجد، وهو أول نداء للصلاة يُنَبِّهُني وأنا ما بين النوم واليقظة، في بلاد الشرق. كلماتٌ طنَّانة وصافية سُمِعَتْ صداها في أرجاء المكان:

(الله أكبر، الله أكبر!) (الصلاة خير من النوم!) (أشهد ألَّا إله إلَّا الله) (أشهد أن محمدًا رسول الله) (يُحيي ويُميت وهو حيٌّ لا يموت) (رحمتُكَ وَسِعَتْ كل شيء) (الله أكبر!).

وبينما كان إيقاع هذه الكلمات العذبة تدوي في المكان بأسره، انخفض صوت المؤذن رويدًا رويدًا؛ لأنه كان يتنقل عبر أركان المئذنة الأربعة ليصل الأذان إلى أقصى مكان يمكن أن يصل إليه. توصَّلتُ إلى استنتاجٍ وهو أن مَن سمع هذا الأذان لا يمكن أن يُهْمِلَ أو يتغافلَ عن استجابة أذان المؤذن؛ فلهذه الكلمات سِحر على مَن يسمعها، ويكفي فقط قوة اللغة العربية وبلاغتها في التأثير على عقل الإنسان.

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٤

إن إلقاء الدروس في مساجد مصر يثير سؤالًا مهمًا للغاية فيه سوء فَهم عام. فعلى سبيل المثال: عرض البروفيسور ديڤيد صمويل مارگـُليوث – الذي كتب كثيرًا عن الإسلام – في كتابه الأخير (الُمحَمَّدِيَّة Mohammedanism) [1] أنه فيما يتعلق بإلقاء الدروس – من الناحية العملية – ما هو إلا تَكرار نمطي للخُطَبِ القديمة، وطريقة الوعظ هي طريقة الدرويش.

فلا ريب أن سوء الفَهم هذا – إلى جانب سوء أفهام أخرى – كان نتيجة عن تَحَفُّظِ المسلمين على استفسارات الغرباء من غير المسلمين، والابتعاد عنهم إذا جاءوا إلى بلاد المسلمين. لذا؛ ففي كل جولة من جولاتي، كنتُ أجدُ أن التواصل الشخصي يكشف عن أشياءٍ مجهولة لأولئك الذين لديهم معرفة كتابية فقط بهذا الموضوع، مهما كان عميقًا.

فمسألة إلقاء الدروس أو (الوعظ) – على سبيل المثال – استحوذتْ لفترة طويلة على اهتمام قادة الإسلام في مصر، مما أدى إلى وجود الكثير من المدارس الأخلاقية الروحية، كما سعمتُ هذا المساء إلى درس الشيخ في المسجد، بالإضافة إلى العديد من الُمفَوَّهين والُمجَدِّدِين من الخُطباء الذين يتولون إدارة المساجد، وإلقاء خُطبة الجمعة. وكثير من مساجد القاهرة الجامعة ما تكون مكتظَّة بالمصلين في يوم الجمعة بسبب بُعد صِيت الدعاة الذين يعتلون منابرها.

وتُعتبر مسألة الوعظ وإلقاء الخطب والدروس من الأهمية بمكان، إذ توجد لجنة فعَّالة جدًّا لتشجيع الوعظ وإلقاء الخطب والدروس الحسنة، ثم تُمْنَحُ الجوائزَ لطلبة العلم في دراسة الإلهيات عن أفضل أسلوب يُلْقَى في المساجد، ثم تُطْبَعُ وتُوَزَّعُ في جميع أنحاء البلد.

وبعد فترة قصيرة، سمع شيخ طنطا شيخًا شابًّا يُلقي خطبة بديعة في يوم الجمعة لمجموعة صغيرة من المصلين، ونظرًا لبلاغته وقوة لغته، حصل على ترقية إلى مسجد في بلدة

---

(١) انظر صفحة ٧٢

كبيرة. سأعرضُ – لاحقًا – الخطوط العريضة لبعض الخطب الأخيرة، والتي تُظْهِرُ أن الإرشاد الأخلاقي والروحي في الإسلام أصبح هو الشائع بين الناس. ومما لا شك فيه أن الخطبة كانت مقتصرة على تَكرار تلك الخطب الحماسية للنفس وتربيتها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء الراشدين من بعده لعدة قرون خلت، حيث كان يُعتقد أنه من الحكمة كبح الدعاة والخطباء الذين بدأوا في استخدام المنابر لغايات سياسية وأخرى غير شريفة. لكن في مصر، مضى هذا الزمن وأدبر، والجهات المعنية في الدولة تعمل على توظيف الدعاة وإرسالهم إلى المساجد، ونقلهم من مسجد إلى آخر، ومن قرية إلى أخرى، حتى يُذَكِّروا الناس بالتوبة وحُسن الأخلاق.

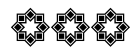
وأُنْشِئَتْ مؤخرًا إدارة الأوقاف بالقاهرة، وأرسلتْ الإدارةُ ستةً من الدعاة في بعثة محلية داخل البلاد، خاصةً وأنه يوجد نقص في عدد المدرسين في المراكز والمحليات المصرية، فكان إرسالهم للوعظ والإرشاد، والعمل على غرس الأخلاق الكريمة. وأستدلُ بالتقرير الرسمي الأخير الذي أعرب فيه عن الأسف لصعوبة العثور على الرجال المناسبين لمثل هذه المهمة؛ لأن من بين الطلاب يُبْحَثُ عمن يصلح للتجنيد بالجيش.

كما التقيتُ بشيخٍ في القاهرة قضى حياته على هذا النحو؛ لأنه من الشيوخ الْمُفَوَّهِين، وله تأثير قوي على الناس، وقد قيل إنه أُرْسِلَ إلى بلدةٍ ازدادت فيها الجريمة لدرجة أن السُلطات تحيرتْ من الأمر كله. فكانت حملته الدعوية النشيطة أنه ترك البلدة وماضيها كأن لم يكن، فصارت صفحة بيضاء يعم في أغلب أرجائها الهدوء. إضافةً إلى أنه كان يزور السجون والمستشفيات من أجل إرشاد الناس وتوعيتهم، وكانت زيارته موضع اجلال واحترام.

ثم ناقشتُ الشيخَ واستفهمتُ منه شيئًا فيما يتعلق بموضوع الوعظ والإرشاد، فكان جوابه بسيطة للغاية:

(إذا قام به البعض، سقطَ عن الباقين)، وهو فرض الكفاية.

فواجب على المسلمين في أي مكان أن يساعدوا الناس على فِعل الخير، وأن يساعدوهم قدر المستطاع في منعهم من فِعل الشر. ويوجد مصطلح في الإسلام يُسمى (الحسبة)، والشخص الذي يقوم بها يُسمى (المُحْتَسِب). ولأنه أراد أن يُبَيِّنَ لي أن الحسبةَ جزء من الإسلام، فقد أحالني إلى مؤلفات الإمام والفيلسوف الكبير أبي حامد مُحَمَّد بن مُحَمَّد الغزَّالي، الذي يشرح كافة مهام (المُحْتَسِب).



الفصل الثاني
في مسجدٍ آخر بالقاهرة

«لم يكن يبالي العرب قديمًا بشأن الصلاة – وهي أول ما بلَّغ من رسالته عن ربه – وكان الجزء الأصعب في أداء رسالته هي حثهم على هذا السلوك التديني للعقل تجاه الخالق، والذي ترسخه رسالة الإسلام على قدم المساواة مع اليهودية والمسيحية؛ فلم يكن ذلك معروف عمليًّا للعرب الوثنيين».

أرنولد؛ توماس وولكر، **الدعوة إلى الإسلام**

في أمسية أخرى، دعاني الشيخ محمد المهدي إلى مسجد العزباني، فلبيتُ دعوته، وهو مسجد بالقرب من نهاية حي الموسكي بالقاهرة – وهو من الشوارع الرئيسة القديمة المؤدية إلى قلب القاهرة –، وكان بناؤه حديث نسبيًّا، بناه الخديوي الحالي. وعلى الرغم أنه لم تكن مساحته كبيرة، إلا أنه غني بالزخارف.

وكانت زيارتي إلى هذا المسجد أكثر صعوبةً وعظمةً من زيارتي إلى مسجد كتخدا. فقد أكد لي العديد من أصدقائي أنني كنتُ المسيحي الوحيد – على حد علمهم – الذي تمكَّنَ من حضور الصلاة في المسجد دون أي نوع من أنواع الاعتراض أو الاحتجاج. ظننتُ أن إسماعيل، الذي كان برفقتي، كان لديه بعض المخاوف القليلة، لكن عندما استقبلني الشيخ عند باب المسجد، تركنا عقب أن ألقى تحية الإسلام. فخلعتُ حذائي، وسرتُ بهدوء إلى ركن في مؤخرة المسجد، وقعدتُ في أقرب صف من صفوف المصلين، وحاولتُ جاهدًا الجلوس على الطريقة الشرقية، وأنا واثق أنني أستطيع أن أُخْفِي حركاتي في السجود والركوع مع المصلين – في الصف الذي أنا واقف معهم فيه – لأنني لا أستطيع محاكاتهم بالضبط.

وكان مما أعجبني وأثار وجداني تلاوة القرءان، فلم يسبق لي أن سمعتُها في أي مسجد من قبل. ولما قام الشيخ الشاب من مكانه متجهًا إلى الكرسي الخاص بالقُرَّاء، انطلقت الآيات القرءانية بصوت رنان وعذب، وكان الحاضرون من المصلين يطلقون هتافات (الله! الله!) إذا تحرك وجدان أحدهم وانفعل مع سماع الآيات بخشوع وتبتُّل، كما هي عادتهم دائمًا. لقد كان المشهد بأكمله مثير للإعجاب ومُحرِّك للوجدان.

إن تجويد القرءان وتلاوته من أكثر الدراسات الإسلامية خصوصية، حيث يُتَعَلَّم التجويد في فترة طويلة، ولكل حرف من الحروف مَخرج معين ودقيق. لذلك؛ لا يجوز لأحد أن يقرأ القرءان دون مُعَلِّم ودون تدريب خشية أن يقع في المحظور، فيُفْهَمُ منه معنًى غير المعنى المراد الحقيقي. وفي حقيقة الأمر؛ يجب على المُتَعَلِّمِ أن يلتزمَ بالتعليم على يد شيخٍ مُعَلِّمٍ حتى يُتْقِنَ هذا الكتاب العظيم – أي القرءان – فيتدرج في القراءة حتى يصل إلى حفظه وتجويده عن ظهر قلب.

إن مهنة قارئ القرءان هي الأكثر شيوعًا التي تعتمد اعتمادًا رئيسًا على البارعين؛ فقد كان يعتقد المسلمون الأوائل أن لغة القرءان هي لغة أهل الجنة، وعلى هذا الاعتقاد بُذِلَتْ جهودًا عظيمة جدًّا للحفاظ على نطق موحد. لكن مع انتشار الإسلام في البلاد الأخرى – أي ليست عربية – تسلل الانحراف في النطق عن النطق الصحيح لآي القرءان الكريم؛ أي نطق أهل مكة، ويرجع ذلك إلى عدم وجود حروف العلة وعلامات التشكيل. وفي نهاية المطاف، استقر المسلمون على سبع قراءات فقط، وهي التي اعتمدتها مدارس القُرَّاء، فأصبحتْ جميع هذه القراءات الآن مقبولة في جميع أرجاء العالم الإسلامي.

وكانت السورة التي سمعتُها في هذه الأمسية أُوُحِيَتْ على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من أجل مواساته، وتخفيف الحزن الذي أصابه:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾ [1].

وحسبما نما إلى علمي أنه يجب أن تكون التلاوة في الصلاة لا تقل عن ثلاث آيات، وأكثر السور تلاوةً هي سورة: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [2]، وأن السور الطوال يُوصَى بها في صلاة الفجر، والسور القصيرة في صلاتي المغرب والعشاء. وهذه كانت صلاة العشاء، وهي تتكون من أربع ركعات (فرض)، متبوعة بأربعٍ أخرى (سُنَّة)؛ تُصَلَّى اثنتين منهما بعد المغرب، والأخيرتين بعد العشاء، بعد الانتهاء من الصلوات المفروضة.

ثم اتخذ الإمام مكانه الصحيح أمام القِبلة، ويعقبه مباشرةً المصلون كأنهم رجلًا واحدًا في كل حركة، فيقولون:

(الله أكبر!) ... (لا إله إلا الله!) ... (ربنا ولك الحمد!).

يتضرعون إلى الله، ويُنَزِّهونه عن كل شيء، وينسبون إليه القدسية، ويسبحونه، ويُعَظِّمُونه. كأنهم كالرجل الواحد يسجد على جبهته، فيُسَبِّحُونه قائلين:

(سبحان ربي الأعلى!).

ثم يرفع المُصَلِّي رأسه والجزء الأعلى من جسده من السجود، ويجلس على كعبيه كأنه نصف راكع، يستغفر قائلًا:

---

(١) سورة الضحى كاملة.

(٢) سورة الإخلاص كاملة.

(رب اغفر لي، وارحمني، واجبرني، وارفعني، وارزقني، واهدني، وعافني).

وفي كل ركعة يتكرر ما سبق، وعندما يفرغ المصلي من صلاته، يرفع كفيه إلى السماء خاشعًا متضرعًا يناجي الله ﷻ، ثم يُنْزِلُ كفيه على وجهه ماسحًا إياه؛ لأنه يؤمن أن تبرك بالكلام الجميل الذي ناجى به، واستبشار بالقبول، ثم يُحَرِّكُ رأسه نحو اليمين تارة، ونحو اليسار تارة أخرى كأنه يُسَلِّم على الملائكة، ثم ينهض للمغادرة. ففي صلاتي الفجر والعشاء لهما أهمية خاصة جدًّا؛ لأن الملائكة تتعاقب على الناس أجمعين، بل وعلى كل شيء حي يدب على الأرض أيضًا. والحديث الشريف يقول: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الْفَجْرِ وَصَلاَةِ الْعَصْرِ ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهْوَ أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ» [1].

وكان صديقي المسلم – الذي كان برفقتي – يصلي في الصف الأخير، بينما جلستُ بالقرب من الجدار الخلفي. وكان حدسي قد أصاب الحقيقة؛ فالمسلم يقف أمام الله في خشوع تام، وهذا مما شجعني على حضور الصلاة؛ لأن الخشوع سيُشْغِلُ المصلون عن متابعتي أو مراقبة محاكاتي لهم التي لا أُتْقِنُها.

فلم يكن هدفي ولا في نيتي أي شيء من التصنُّع أو التظاهر بعبادة المسلمين من أجل كسب منفعة لي في تواجدي بالمسجد، بل إن الأمر كله أني كنتُ أفعل كما يفعلون، وجاهدتُ نفسي في محاكاتهم في الركوع والسجود، والجلوس على طريقتهم الشرقية. وكانت النتيجة – كما توقعتُ – أن جميع أهل الشرق لم يكتشفوا وجودي معهم بمعنى أني غريب عنهم.

---

(1) صحيح البخاري – كتاب مواقيت الصلاة – باب فضل صلاة العصر – حديث رقم ٥٥٤، والحديث من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

فليس هناك ما هو أغرب على المُحَلِّلِ الغربيِّ من اليقظة والإصرار الراسِخَين في سلوك المسلم أثناء الصلاة. ففي كثير من الأحيان – في يوم الجمعة – أشاهدُ غُثَاءً كغُثاء السيل من المسلمين في المساجد، ومنهم مَن يبسط سجادته الخاصة خارج المسجد، ويقيمون الصلاة على مرأى من الجميع، في حين أن كثيرًا من الأطفال يلعبون بجوارهم، وكل ما يشتت انتباه المصلين، إلا أن ذلك كله دائمًا يذهب أدراج الرياح، كما لو أن الأطفال وغيرهم غير موجودين أصلًا في الشوارع.

ذات مرة، كنتُ في القطار المسائي في القاهرة، وأنتظرُ ميعاد انطلاقه إلى الإسكندرية، فإذ بمصريٍّ من الفلاحين – كان يسافر على نفس القطار – سَوَّى أمتعته، ونظر إلى ساعته، وبعدها ذهب إلى رصيف القطار، وافترش سجادته على الأرض بحيث جعل عمود الإنارة في وجهه كما لو كان العمود بمنزلة القِبلة، وصلَّى صلاته في زخم من الضوضاء والصخب وكل ما يعمل على تشتيت الانتباه، إلا أنه كان خاشع للغاية في صلاته، كما لو أن كل هذا لم يكن.

فأول شيء يُعَلَّمُ للأطفال في المسجد هو الحركات المنضبطة أثناء الصلاة. القواعد صارمة للغاية، فالضحك أثناء صلاة الجمعة يُبْطِلُ الصلاة؛ بل يتطلب الوضوء ثانيةً. ويُكره للمصلي أن يتثاءب في صلاته، ويجب ألا يُسْرِع في الصلاة وألا يَسْترخ؛ بل عليه أن يتوسط في الأمر. وأول قاعدة عُرِفَتْ عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قوله:

«صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي» [1].

---

(1) سنن الدارقطني – كتاب الصلاة – حديث رقم ١٠٨٦، والحديث من طريق مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

وبلغة أهل الشرق البليغة، قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «يَا بُنَيَّ إِذَا سَجَدْتَ فَلَا تَنْقُرْ كَمَا يَنْقُرُ الدِّيكُ وَلَا تُقْعِي كَمَا يُقْعِي الْكَلْبُ وَلَا تَفْتَرِشْ ذِرَاعَيْكَ افْتِرَاشَ السَّبُعِ» [1].

ومن القواعد الغريبة في إقامة الصلاة في المساجد أنه لا يجوز للمرء أن يمر بين يدي المصلي. إن هذا المرور لا يُبطل الصلاة، لكنه شيء مؤذٍ في حق المصلي. وكان صديق لي في مسجد العزباني بالقاهرة – في يوم العيد – قد استاء من الحشد الضخم للمصلين والزحام الشديد، لكنه كان يقول للمصلين:

(تقبَّل الله ... حَرَمًا!). فكان الآخر يرد عليه: (جمعًا إن شاء الله!).

وقبل أن يبدأ المسلم صلاته، يقول بصوت منخفض ويداه في هيئة التكبير حذو منكبيه:

(اللهم إني وَجَّهتُ وجهي لك، ونويت صلاة كذا).

ويجب عليه ألَّا يخرج عن هذه النية من بداية صلاته حتى نهايتها.

وكثيرًا ما كان يؤكد السيد ويليام هنري تمپل غيردنر William Henry Temple Gairdner في كتاباته الأخيرة أن صلاة المسلمين ما هي إلا تدريبات وحسب، بل إن القس ويليام سانت كلاير تيسدال the Rev. W. St. Clair Tisdall ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، وقال إن صلاة المسلمين ليست فرض، وإنما هي أفعال صبيانية، ليس إلا. ولا يسعني إلَّا أن أؤكدَ أن تجاربي تُوجِبُ عليَّ أن أذهب إلى رأي مخالف لهما، ورأيي هذا مدعوم بتحليلات الرحَّالة وغيرهم ممن عاشوا وسط هؤلاء الشرقيين، ودون أي تحيز أو تصور مسبق، تمكَّنوا من اختراق ذلك الغموض المحيط بالمسلمين في الشرق، والذين هم ألقوه على دينهم؛ لأنهم يخشون

---

(1) المعجم الصغير – باب الميم – مَن اسمه مُحَمَّد – حديث رقم ٨٨٠، والحديث من طريق أنس بن مالك. لَا يُرْوَى عَنْ أَنَسٍ بِهَذَا التَّمَامِ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ تَفَرَّدَ بِهِ مُسْلِمٌ الْأَنْصَارِيُّ وَكَانَ ثِقَةً.

على دينهم وشعائرهم أن يُسْتَهْزَأَ بها أو يُسْخَرُ منها. لذلك؛ فإن المُحَلِّلين من المستشرقين الذين يتابعون أهل الشرق، وهم قد ارتابوا منهم، فيستحيل أن يكتسبوا أي معرفة حقيقة أو فَهم عميق لدينهم؛ بل سيرى الظاهر فقط دون فَهم حقيقته. فالذين تعايشوا مع الشرقيين عن كثب، يمكنهم وحدهم فقط أن يفهموا كيف يفشل العقل الغربي الفظ الغليظ أمام براعة العقل الشرقي وذكائه وحُنْكَتِه عندما يكون هناك أي شيء يمكن إخفاؤه.

فهل كان يمكنني أن أنسى صلاة المسلمين كما رأيتُها في الصحراء النائية، أو في قرى الريف، أو في السوق، أو في مسجد المدينة الواسع، أو في اجتماع الريفيين في قريتهم البعيدة؟! أولم يكف ما رأيتُه دليلًا على الروح التعبدية العميقة، وآلاف الوجوه التي تعلوها نشوة الوقوف بين يدي الله في المساجد؟! ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ (١).

وإذا كان هناك شيء واضح في الإسلام من حيث كونه أول شيء يجب أن يحتل المرتبة الأولى، فهو إقامة الصلاة إقامةً نابعةً من قلب المسلم، فإن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عَلَّمَهم ذلك، فقال: «مَا مِن امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاَةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ» (٢)، حتى تُقْبَلُ عند الله.

فلا شك أن لممارسة الصلاة حكمة عملية مدهشة على الجسد، وإقامتها خمس مرات في اليوم والليلة لا بُدَّ له أن يكون له علاقة كبيرة بحيوية الإنسان ونَضَارة وليونة قويتين، فمكنتنا

(١) سورة الفتح: ٢٩

(٢) صحيح مسلم – كتاب الطهارة – باب فضل الوضوء والصلاة عقبه – حديث رقم ٥٦٥، والحديث من طريق أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

العرب – في السنوات الأولى للدعوة – من نشر الإسلام في بلاد العالم في أقل من مائة سنة من بلاد دلهي في الهند إلى بلاد غرناطة في إسبانيا. وبنفس الطريقة – في شهر رمضان – فإن إطالة الصلاة لها تأثير ممتاز في تعزيز هضم الوجبة التي ربما تكون ثقيلة على المعدة فيلجأ المسلم بسببها إلى النوم.

وانظر إلى الوضوء، فإنه مفيد للصحة، ولكن لأن الوضوء فرض لإقامة الصلاة، فينبغي ألَّا يُعْتَقَد أن أيًّا من هذه الأشياء كافية في حد ذاتها للمنهج القويم والقبول عند الله. ومن خلال أوامر الإسلام، تَكْمُن الفكرةُ في أن الله وحده هو المُطَّلِعُ على قلوب العباد، وأنَّ الظاهرَ ليس مقياسٌ على القبول؛ فالوضوء لا ينفع إلا بقلب سليم وطاهر. ونجد أن حُجَّةَ الإسلامِ الغزَّالي قد أكد على هذا المعنى، فقال:

(القلب هو المقبول عند الله إذا سَلِمَ من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقًا بغير الله) [١].

وقال جلال الدين الرومي – أشهر أعلام الصوفية في القرن الثالث عشر – عن القلب:

(أيها القلب! لماذا أنت أسير الهيكل الترابي الزائل؟).

فلا ينجو الإنسان بمجرد معرفته بأسماء الله وصفاته، ولا بمجرد عبادته ﷻ ولو التزام الصرامة من الناحية الشكلية وحسب؛ بل ينجو بقلبه الصافي والنية الصادقة في عبادة الله من أجل أن يُمنَحَ رضاه وغفرانه على الإنسان.

قال (عمر) – خادم السيدة لوسي داف غوردون Lucie Lady Duff Gordon – الذي أُعْجِبَ بكتابها (رسائل من مِصر):

---

(١) أبو حامد الغزَّالي؛ مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد – **إحياء علوم الدين: "ويذيله كتاب: المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار"** – الجزء الثالث – صفحة ٣ – دار التوفيقية للتراث.

(إذا ما فعلتُ ذنبًا، لا أقدر على أن أدعو الله خجلًا منه ﷻ).

وهذه هي الروح التي يتقرب بها عدد كبير من المسلمين إلى ربهم، وهي روح الخجل. وهناك من المتدينين مَن يتمسكون بظاهر العبادات والشكليات، وهؤلاء في كل دين، وربما تكون الشكليات في الإسلام أهون – في هذه الأيام التي تعاني من حالة أخلاقية سيئة – مما يماثلها في غير الإسلام، ويؤكد ذلك ويقويه الرأي العام نفسه حيث يُسمح بالتدخل في الشعائر الدينية للمسلم إذا لم يوافق سلوكه عبادته، وإذا فعل أي شيء من الحرام ينهاه المسلمون عن ذلك؛ فالله وحده هو الذي يعلم حقيقة عبادته. لذلك؛ من الظلم رمي المسلمين بتهمة كبيرة مثل هذه التهمة بأن صلاتهم مجرد حركات جوفاء وتقليد أعمى.

وهذه التهمة الشنعاء لا تأخذ في اعتبارها صلاة المسلم منفردًا، والتي تُشَكِّلُ جزءًا كبيرًا من خشوع المسلم. وفي كثير من الأوقات رأيتُ رجالًا جالسين مستغرقين لفترات طويلة أثناء إقامة الصلوات غير المفروضة، سواء في المساجد أو في غيرها؛ لأن الصلاة في المسجد لها قدرها العظيم لا سيما صلاة يوم الجمعة حيث تُصلي الملائكة فيه مع المصلي. إلا أن عديدًا من الكُتَّابِ أخطأوا في ادعائهم أن مناجاة المسلم ودعائه في صلاته لا تحظى بأهمية كبيرة. وقال النبي ﷺ عن ذلك: «صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ مَائَةِ صَلاَةٍ فِي غَيْرِهِ مِنْ الْمَسَاجِدِ وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِي مَسْجِدِي وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ رَجُلٌ يُصَلِّي فِي زَاوِيَةِ بَيْتِهِ رَكْعَتَيْنِ لَا يَعْلَمُهُمَا إِلَّا اللهُ ﷻ»[1].

---

[1] أخرجه أبو الشيخ في الثواب من حديث أنس: «صلاة في مسجدي تعدل بعشرة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة والصلاة بأرض الرباط تعدل بألفي ألف صلاة وأكثر من ذلك كله الركعتان يصليهما العبد في جوف الليل لا يريد بهما إلا وجه الله ﷻ»، وإسناده ضعيف. =

ولقد كان يعتري رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم بكاءً شديدًا بسبب اندماجه التام في مثل هذه الصلوات، وكذلك صهره (علي بن أبي طالب عليه السلام) حتى وصل إلى درجة أن جسده لم يعد يشعر به، وكأنه تحت تأثير مُخَدِّر، من شدة حرصه على الخشوع والتأمل. وكما قال المؤرخ الهندي الشهير (سيد أمير علي):

(وقد أدرك العالَم المسيحي بشق الأنفس جوهر الروح التعبدية المكنونة في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم).

ولا يمكن أن يتأتى هذا الخشوع والتأمل وفَهم جوهره في ظل رفض حركات الصلاة الظاهرية واعتبارها حركات جوفاء لا معنى لها.

ففي الشدائد يجب على المسلمين أن يلجئوا إلى صلاة معينة، وأن يصوموا، ويتوبوا عن ذنوبهم. كما أنه في نوائب الدهر العامة، فإن الجميع يُدعى إلى إقامة هذه الصلاة، ويتضرعون فيها، ويبكون على ارتكابهم الذنوب والمعاصي والآثام، ويتذللون إلى ربهم منكسرين خاضعين. وتُقام هذه الصلاة في الساحات الكبيرة في مشهد مهيب. وكثير ما يقال إن الشعور بالذنب ليس له مكان في عبادة المسلمين، وهو مما دعاني إلى معرفة حقيقته من كل طوائف المجتمع: بداية من فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، ونهاية إلى أصدقائي البسطاء في القرية، ونتيجة هذا النقاش سأقوله في وقتٍ لاحق من هذا الكتاب.

= أبو حامد الغزَّالي؛ مُحَمَّد بن مُحَمَّد – **إحياء علوم الدين: "ويذيله كتاب: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار"** – كتاب: أسرار الصلاة ومهماتها – الباب السابع: في النوافل من الصلوات – الجزء الأول – صفحة ٢٥٥ – دار التوفيقية للتراث.

يقول صديق لي مسلم – متزوج من سيدة مسيحية – إن صلاته تختلف عن صلاة زوجه [1]، حيث كانت صديقة لهما مريضة جدًّا، وكان كل واحد منهما يصلي بصلاته من أجل شفائها. ثم كتب صديقي رسالة إلى قريب له في طنطا – وهو شيخ تقي ورع – أخبره في رسالته أن صديقته مريضة جدًّا، فهل سيصلي هذا الشيخ ويدعو لها، ولزوجها، ولأصدقائهم؟

هل كان في جواب الشيخ التقي الورع ما يدل على أن نصيبه وقدره أن يكون شيخًا لِيُسْتَدعَى لذلك؟ قد كان مسرورًا حقًّا بذلك، وزيادة على ذلك، كان يجتمع مع إخوانه من المشايخ الذين تربطهم به صلة صوفية للتفكُّر والتدبر، والدعاء والتضرع لله تعالى لأنفسهم، ولغيرهم ممن يحتاجون الدعاء من الناس. وكان يُوَجِّه أقرانه من المشايخ في القاهرة بتلاوة صيغة موحدة من الأدعية لأصدقائه الذين هم في أَمَسِّ الحاجة إليها.

تعليق غريب على التُهَمِ الموجه إلى الإسلام، كتُهمة القدرية، والشكلية، والذي يُصَنَّفُ بأنه دين عالمي شامل!

لا شيء يفوق أهمية الصلاة. لم يكن عمرو بن العاص ﵁ في ظرفٍ مُؤَاتٍ عندما كان على رأس الجيش وكان إمام المسلمين في صلاة الجمعة؛ فلم يغفل عن صلاته قط. فالصلاة كانت هي اهتمام المسلمين الأول، وشغلهم الشاغل دائمًا، في مصر وأي مكان آخر في مسيرتهم الظافرة بالنصر على العالم. ويقف جامع عمرو بن العاص ﵁ – في القاهرة – إلى يومنا هذا شاهدًا على أن أول اهتمام المسلمين هو الصلاة، وأنه أول جامع للعبادة في مصر.

إنه نفس الشيء الآن؛ فأول ما يحتاجه أي مجتمع مسلم هو المسجد، لأن رغبة المسلم الشديدة – وهو يتلو آياته كتابه السماوي – أن تُقْبَلَ صلاته في المسجد. ومنذ أن تواجد عدد من

---

[1] الزوج يُطلق على الرجل والمرأة، فالمرأة زوج لزوجها، والرجل زوج لزوجه (امرأته).

الرجال من إحدى قبائل الزنوج بغرب إفريقيا في برلين، لم يستطيعوا التحدث إلى أي شخص لاختلاف اللغة، وكانوا غير سعداء وقلقين، على الرغم من حُسن الضيافة. وأخيرًا ظهر مسافر لديه دراية بكلامهم ولغتهم، فكانوا فرحين جدًّا بوصوله، وكانت أول كلمة نطقتْ بها شفاههم أن سألوه: أين اتجاه القِبلة؟

والشكلية – المُتَّهم بها الإسلام من جانب الكُتَّاب الأوروبيين – تعني أن الراصد لأحوال المسلمين غير مُتَفَهِّم لأحكام الدين. فالصلاة أكبر من المكان؛ أي أنه يمكن للمسلم أن يتجاهل اتجاه القِبلة في بعض الأحيان، كما فعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ذات مرة، وأدار ظهره للقِبلة في مسجد المدينة المنورة، وتبعه المسلمون في ذلك حتى انتهى من صلاته تمامًا، والقرءان الكريم يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ (٢).

❁❁❁

(١) سورة البقرة: ١١٥

(٢) سورة البقرة: ١٧٧

الفصل الثالث

الدخول إلى أكثر المساجد قدسية، ومشاهدة حياكة كسوة الكعبة المشرفة، والآثار النبوية

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾.

القرءان الكريم، سورة الشورى: آية ١٥

يوجد في القاهرة ثلاثة مساجد جامعة كبرى هي الأكثر تبجيلًا وتمجيدًا في نظر الأجانب المتدينين، وهي مستثناة من أي أوامر يصدرها مدير إدارة المساجد بزيارة دور العبادة في مصر، وهذه المساجد هم: ضريح الإمام الشافعي رضي الله عنه، ومسجد الإمام الحسين عليه السلام، ومسجد السيدة زينب عليها السلام.

وقد زرتُ اثنين من هذه المساجد، رغم أن عددًا من المسئولين الكبار حاولوا صرف نظري عن الزيارة، ولم يخاطروا من أجل إعطائي تصريح بذلك. وبعد العديد من المحاولات اليائسة لزيارة مسجد الإمام الحسين عليه السلام، وبفضل معرفتي الشخصية بعدد من مشايخ مشيخة الأزهر الشريف في مصر، فتحتُ صداقة متنامية مع الشيخ المسئول عن المساجد، كما لو أن الخديوي نفسه هو الذي أعطاني إذن الزيارة. ومن جانبي؛ أنا ممنون جدًّا للشيخ محمود علي الببلاوي، خادم مسجد الإمام الحسين عليه السلام، للخدمات المتميزة التي قدمها لي.

وفي زيارتي الأولى، كان هناك بعض المناقشات بين صديقي المسلم وعُمّال المسجد أمام بابه، بينما كنتُ أقفُ بتواضع بعيدًا بعض الشيء. وبعد أن أنهى صديقي حديثه معهم، ومع مشايخ المسجد، جاء جميعهم إليَّ خارج مسجد الإمام الحسين عليه السلام ليعرفوا مَن ذلك المسيحي الذي سيُسْتَضَافُ في المسجد. إنه مسجد الآثار النبوية الشريفة، ففيه ضريح مدفون في ثراه رأس سِبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الشهيد، وفيه حجرة خاصة جدًّا تشمل على عصا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسيفه، وقطعة من عباءته، وبعض الشعرات من لحيته صلى الله عليه وآله وسلم.

وبعد ما يزيد عن النصف الساعة، أُرْسِلَ رسول خلالها إلى علماء الأزهر الشريف، وعاد الرسول بمذكرة تفيد أني مُرَحَّبٌ بي في المسجد، وجلستُ مع رفيقي المسلم بجوار كسوة الكعبة حافي القدمين – عند العمود الأول – أنتظرُ ما سيحدث. ولسببٍ ما، لم يظهر الشيخ ردًّا على المذكرة، إلا أن شيخين لهما بِنية جسمانية قوية، فذهبا إلى عامل المسجد، وحدث بينهم مشادة كلامية بسبب وجود مسيحي في مسجد الإمام الحسين عليه السلام وقعوده بجوار كسوة الكعبة كما يفعل المسلم بالضبط. وفي نهاية المطاف؛ أُمِرَ العامل بمغادرة المسجد لحين اتخاذ قرار بشأنه. أما بالنسبة لي، بعد أن بذلتُ قُصارى جَهدي لحماية هذا العامل لأنه قام بخدمتي على أكمل وجه، اضطررتُ للانزواء بعيدًا ليس بيدي حيلة!

في غضون أيام قليلة، حاولتُ مرة أخرى للدخول إلى هذا المسجد بصحبة صديق لي، وهو ممن له وجاهته. دخل إلى شيخ المسجد، فاستقبله الشيخ بلطفٍ في حجرة الإمام، لكنه اعتذر لي بشدة، وكان من المستحيل الدخول خاصةً وأن كسوة الكعبة المشرفة كانت هناك، لكنني رأيتُ آخر شيء من خياطتها وتطريزها قبل مغادرتها إلى مكة المكرمة.

وكما قرأتُ بالضبط في كتاب (المصريون المحدثون) لـ إدوارد ويليام لين، كيف أنه دخل مسجد الإمام الحسين عليه السلام مرتديًا الزي المصري، وكان يتصرف كما لو كان مُسلمًا حقًّا، ثم

تابع سيره بين حشود المسلمين ليرى حياكة كسوة الكعبة المشرفة، وكان يرافقه صديق مسلم الذي كان خائفًا للغاية عليه حتى لا ينكشف أمره بين جموع المسلمين. أما أنا فكنتُ متلهفًا لمعرفة ما إذا كان من الممكن لمسيحي أن يدخل المسجد، ويرى كيفية حياكة الكسوة، وقد ارتديتُ طربوشًا فقط، ومن غير أي محاولة مني للتغيير من هويتي، أم لا؟

أناشدُ هذه المرة مدير إدارة المساجد الجامعة الكبرى، في مكاتب إدارة الأوقاف، بأن كل شيء ممكن كان ينبغي أن يُتاح لي، وخصوصًا هذه المساجد الجامعة الكبرى الممنوعة دخولي إليها، وحتى صورة في جامعة الأزهر الشريف ليس مسموح لي بالتقاطها. إن مدير الإدارة كان يعلم أن مجموعًا من العوام الجهلة سيُحْدِثُون شغبًا إذا ما دخل أوروبيٌّ هذه المساجد الثلاثة، وكذلك الأزهر، وستكون العواقب محرجة للغاية خاصةً إذا كان رجلًا إنجليزيًّا!

وقد بدا لي ذلك – كما ذكرتُ – لكن ما زال لدي بصيص من الأمل الضعيف لدخولي مسجد الإمام الحسين عليه السلام عن طريق شيخ المسجد نفسه، والذي كان مقتنع بما أقوم به، وكان من المقرر أن ألتقي به على انفرادٍ؛ إنه شخص لطيف ودمث الأخلاق، وقد أقنعته بحقيقة أمري، وأنني لستُ مُتفرجًا أو سائحًا؛ بل شرحتُ له كيف أني حريص كل الحرص على مشاهدة الإسلام وفَهم شعائره قدر المستطاع بهدف شرح ما رأيتُه بحقٍّ وعدلٍ. وفي صباح اليوم التالي؛ دُعِيتُ للحضور إلى المسجد مع صديقي إسماعيل.

حتى هذه اللحظة، كنا على باب المسجد، والذي كان مزدحمًا للغاية بهدف الحضور. كان خادمًا – قد عُيِّنَ لخدمتنا – ينتظرنا بالخارج، وعندما بدأنا في خلع أحذيتنا قبل دخول المسجد، أسرع الخادم إلى لإبلاغ الشيخ بمجيئنا. فجاء الشيخ مسرعًا لاستقبالنا، وكان الشيخ من الصالحين، حيث تبددتْ معارضة مَن كانوا لا يريدون دخولي. ومن غير تردد دخلتُ هذا المسجد المبارك، ومررتُ على سجادته المصممة بصميم شديد الروعة وسط حشود من الرجال

والنساء المتحجبات حتى وصلتُ إلى جانب القِبلة. وعندما فُتِحَ البابَ وجدتُ نفسي في غرفة طويلة ضيقة أو ممر، وعلى أحد جوانب الأرضية رأيتُ جزءًا من كسوة الكعبة المشرفة يحيك خياطتها أحد الذين هم مخصصون لذلك العمل الجليل. إن تطريزها من الذهب الغني بنقوش الآيات القرءانية.

ثم عدتُ من الباب الضيق إلى ذلك المسجد المُعَظَّم، وتمكنتُ من فحصه بدقة. والقِبلة مزخرفة بأبهى الزخارف وأبهجها على الإطلاق. ورأيتُ المِيضَأَةَ التي يتوضأ فيها كثير من الرجال والشباب استعدادًا لصلاة الظهر، بينما كان في أحد أركان المسجد الفسيح احتشد جمعٌ غفيرٌ يجلسون عند أقدام مشايخهم للتعليم أو للبركة. فهذا المسجد هو أحد المساجد الكبرى التي تحمل منهج الجامع الأزهر الشريف.

كما كان يقرأ الناس العلوم الدينية على طلبة العلم الأزهريين البالغ عددهم ١٣٠٠٠، وكان يستفهم منهم مَن أصابته الحيرة في مسألة ما من مسائل العلوم الدينية. وكان لا بُدَّ أن يُفْهَمَ أن الأمر يتطلب أكثر من ثلاثين مسجدًا لاستيعاب هذا العدد الهائل، ومعظم هذه المساجد لم يرها السائح العادي لمصر.

ثم دخلتُ إلى حجرة إمام المسجد، وتجاذبنا أطراف الحديث حول وجود المسيحي في هذا المكان الذي يحمل خصوصية عند المسلمين، فقال لي:

(إن المسلم المتعلم والمثقف لن يعترض على وجود المسيحي في المسجد أو في غيره، وإنما نخشى من العوام الذي يغلب عليهم الجهل وعدم العلم أن يُسيء الفَهم؛ لأنه لا يحب أن يرى وجود أي رجل يعتقد فيه أنه لا يحترمه ولا يحترم دينه. ورغم ذلك؛ إذا اِسْتُقْبِلَ أي رجل مسيحي، فسيُرَحِّبُ به العوام على مضض؛ لأنه كان على زمن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وُجِدَ مَن كان يستهزأ بديننا، والقرءان حذرنا منهم، كما قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَإِذَا

رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴿٦٨﴾﴾ [1]. فهذا هو سبب اعتراض المسلمين على وجود الغرباء بينهم.

ولقد اكتسبَ المسلمون خبرةً قويةً في كل مكان أن يتوقعوا من الأوروبيين أنهم سيستهزئون بدينهم وبشعائرهم. كان ذلك هو أيضًا تحليل السيدة لوسي داف غوردون Lucie Lady Duff Gordon، فقالت:

(إنه لمصدر إزعاج لي عندما أجد أن المسلمين يتوقعون منا دائمًا عدم احترام دينهم، وهو أمر خارج عن إرادتهم، وليس ذنب أو سوء ظن منهم؛ لذلك أرجو أن يُدْرِكَ الإنجليز كيف أن أسلوبهم فظ وغليظ وغير مقبول عند المسلمين، وأن طريقتهم في حديثهم إلى الذين يخدمونهم من المسلمين طريقة مؤذية ومزعجة. أخبرني عمر أنه: كم شعر بالسوء إذا ما سُئِلْتَ عن شيء ما، فيرى الإنجليزيَّ يضحك بسخرية، أو يرفع شفتيه، ويُهَمِهِمُ بكلمات مفادها أنه: "كلام تافه لا قيمة له"!).

ثم قالت:

(سألتُه: هل هذا صحيح؟ هل في صلاة الجمعة في المساجد تُصَبُّ اللعنات على الذين يعبدون المسيح بسبب الكتاب الذي أَلَّفَه مطران لندن؟).

فجاء جواب عمر – الخادم – بالنفي فورًا، وقال لها:

(هذا غير صحيح البتة، وإنما الأمر يتعلق بالوثني المشرك – الذي لا يؤمن بأي دين سماوي – ولا يجوز للمسلم أن يتجوز من نساء المشركين. أما المسيحي واليهودي فيجوز ذلك

---

(1) سورة الأنعام: ٦٨

قطعًا، فيننا وبينهم علاقات اجتماعية، وطعامهم حِلٌّ لنا وطعامنا حِلٌّ لهم، ويتزوج المسلم من مسيحية أو يهودية، أما غيرهما فهو حرام، وصداقة المشرك لا تجوز. فكانت من مهام رسالة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هي تدمير الأصنام، وفي كل ما قام به في حياته أنه أسس قوانينًا بعيدة المدى. أما فيما يتعلق بعبدة الأصنام، فليس هناك أي من هذه الأمور الجائزة مع المسيحي واليهودي. انظر إلى قوله سبحانه وتعالى في شأن المسيحيين: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [1].

وتابع الشيخ قوله: قال الله تعالى: (﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [2].

ثم قال:

(واسمحوا لي أن أقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [3].

لقد ناقشتُ هذه المسألة مع كبار علماء المسلمين في مصر، ومع كل البسطاء الذين لم يتعلموا شيئًا من القرءان إلا اليسير جدًّا منه، ولم يكن بينهما أي خلاف أو اختلاف حولها. وكان كلام سماحة الشيخ السيد عبد الحميد البكري رضي الله عنه – نقيب السادة الأشراف وشيخ مشايخ

---

(١) سورة المائدة: ٨٢

(٢) سورة آل عمران: ٥٥

(٣) سورة البقرة: ٦٢

الطرق الصوفية وشيخ الطريقة البكرية – مُعَزِّزًا لكلام شيخ الأزهر. علاوة على ذلك؛ جاء رد عباس أفندي – رئيس طائفة البهائيين – حاسمًا قويًّا عندما سألتُه عن نفس المسألة، فقال:

(بالإجماع إن اللعنة على الأعداء فقط. وهل النصارى واليهود أعداءنا؟ كلا؛ إنهم من أنصارنا، ونحن لا نلعن ولا نعادي أنصارنا).

وكانت ثمرة استفساراتي الكثيرة حول مسألة لعن المسلمون للمسيحيين أن ذلك لم يكن قط، ولن يكون أبدًا؛ لأن آيات القرءان – كما بدا لي – تدعوا إلى التعامل بالحسنى مع المسيحيين. وفي عقيدة رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم وأتباعه أن اعتبار السيدة العذراء مريم مساوية للآب والابن تعني عبادة المسيح. والمسلمون دائمًا يحترمون السيدة العذراء مريم عليها السلام، ويُبَجِّلُونها ويُعَظِّمُونها بالضبط كما يفعلون مع نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم، ويقولون: سيدتنا السيدة مريم عليها السلام، ويؤمنون أن عيسى هو روح من الله وكلمته، أنجبته السيدة مريم. وقال القرءان في شأن ذلك: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [1].

وأقول مرارًا وتكرارًا إن المشركين هم فقط مَن يقصدهم المسلمون في دعائهم في صلاة الجمعة، وكان يقول لي أصدقائي البسطاء:

(إن الله أباح لنا الزواج من المسيحية واليهودية، فهل من المعقول أن نلعن أو نسيء بالقول أو بالفعل لزوجاتنا؟).

---

(1) سورة الممتحنة: ٨، ٩

ثم قال شيخ من العلماء:

(قال الله في كتابه الحكيم: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [١]. أليس هذا من الأدلة الكافية للذين لا يصدقوننا أن المسيحيين – في عقيدتنا – ليسوا مشركين ولا وثنيين؟ انظر وتأمل في علاقة المسلمين بالأقباط المسيحيين منذ الفتح الإسلامي لمصر، وإن الرأي القائل بأن الإسلام انتشر بحد السيف هو رأي سطحي تمامًا، وإلا لكان المسيحيون الآن في مصر ليس لهم وجود البتة).

ثم استمعتُ إلى خطبة بسيطة بما فيها الكفاية من البساطة، لكنها بليغةٌ مُحْكَمَةٌ. وفي يوم آخر، حضرتُ بإذن من شيخ الأزهر شخصيًّا محاضرةً علميًّا في الرواق العباسي بالجامع الأزهر الشريف، وقد ألقى المحاضرة أحدُ طلبة العلم بالأزهر. وكان هذا الرواق قد بناه الخديوي عباس حلمي الثاني، وكان الرواق خاصةً لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر أو أساتذته الذين عُيِّنوا للتدريس وحسب.

وكان على ذلك الطالب أن يلقي محاضرةً كي يتأهل إلى أن يكون عضوًا في هيئة التدريس بجامعة الأزهر. وبالمناسبة؛ إن مدة تعليم هذا الطالب وغيره تمتد إلى سنوات طويلة جدًّا. لقد كان شابًّا وسيمًا وكفيفًا، وأخذ بيده أحدهم إلى حيث يقعد لإلقاء المحاضرة العلمية. كانت المحاضرة عن مرحلة معينة من مراحل الفلسفة، ونصح مَن يستمع إليه من أقرانه ألا يخجلوا أبدًا من قولهم (لا أعلم)، إذا سُئِلَ أحدهم في مسألة تحتاج إلى بحث، وذكر لهم أن إمامًا عظيمًا،

---

[١] سورة البقرة: ٢٢١

وهو الإمام مالك رضي الله عنه عُرِضَتْ عليه أربعين مسألة، فأجاب عن ثمانية فقط، وبقية الأربعين كان رده: (لا أدري ... لا أعلم!). لذلك؛ لا تخجلوا من قول (لا أعلم) خصوصًا في المسائل التي لها علاقة بالعقيدة والإلهيات.

وذات يوم، ذهبتُ إلى الغرفة الخاصة بعلماء الأزهر الشريف، وقعدتُ هناك، وكان أغلب العلماء حضور، وشاركوا في الاستفسارات والمناقشات التي أَثَرْتُها دون تردد مني ولا خوف حول: شخصية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وتعصب المسلمين، ولعنة المسيحيين، وعدم توبة المسلمين من ذنوبهم، ... وهكذا. فوجدتُ فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر يُجْلِسني على الأريكة بجانبه، وكان اهتمامه بي وبأسئلتي واضح جدًّا، فلم يكن يسعني إلا أن أبتسم فرحًا مما فعله من أجلي، وتذكرتُ مزاعم السيد ستانلي لين بول Mr Stanley Lane-Poole في كتابه (سيرة القاهرة):

(إن هذه الدراسات تميل حتمًا إلى التعصب، فعلماء الأزهر وأساتذته هم الأكثر تعصبًا من غيرهم، كما أنه في بعض الأوقات يكاد يكون من المستحيل أن تطأ قدم مسيحي داخل هذا المبنى [أي الجامع الأزهر] دون التعرض للإيذاء والإهانة أو حتى الإيذاء البدني).

هكذا كان أحد مزاعمه، إلا أنني لم أجد ذلك البتة؛ بل لقد ساعدني شيخ الأزهر في كل شيء، وأرشدني إلى تكوين صداقات بين طلبة العلم بالأزهر وأستاذته وعلمائه، كما أن آلة التصوير الخاصة بي استخدمتُها في التقاط الصور التي أريدها، ولم تكن من الأمور المحظور استخدامها، على الرغم من أن بعض السائحين قد يتعرض لبعض المضايقات من العوام، لذلك كان من المحظور التصوير ليس من باب التعصب، وإنما حفاظًا على السائحين غير المسلمين. وكم شاركتُ أحد طلبة الأزهر المجاورين، وكان يقدم لي طعامه عن طيب نفس، رغم أن طعامه قليل يكفيه هو فقط.



مآذن الجامع الأزهر الشريف – القاهرة

قد قلتُ سابقًا إن مسجد الإمام الحسين عليه السلام يحظى بتبجيل المسلمين واحترامهم بصورة استثنائية، لأنه يحتوي على آثار نبوية شريفة. وبعد ذلك؛ سمعتُ أن الاحتفال بمولد الإمام الحسين عليه السلام يُعْرَضُ فيه تلك الآثار النبوية الشريفة على أنظار الحاضرين. ومنذ ذلك الوقت؛ صرتُ معروفًا لجميع (عُمَّال المسجد)، وكان الشيخ – وهو رئيس العُمَّال – ودودًا ولطيفًا للغاية، وقد كان يعلم أنني ينبغي أن أرى هذه الآثار الشريفة في يوم المولد، لكنه لم يستطع أن يحدد ذلك اليوم حتى لا يُلْزِمَ نفسه ولا يستطيع الوفاء بالميعاد المتفق عليه. ومع ذلك؛ ربما أزوره في اليوم المحدد، والذي بالمناسبة، قد يُغلق المسجد في ذلك اليوم بالكامل؛ إذ أن الفُرْسَ يُظْهِرون الحزن ويقيمون الحُسينيات تقديسًا لابن علي بن أبي طالب [عليهما السلام]. فالمسجد يحوي رأسه الشريفة، ومرور موكبهم المُرَوِّع والمُفْزِع أمام باب المسجد المغلق هو من باب التسامح لمشاعر المسلمين الإيرانيين [الفرس] في القاهرة.

عند وصولي إلى المسجد، وجدتُ ازدحامًا شديدًا، فمن المسلمين مَن هو جالس يتدبر ويتأمل، ومنهم مَن يصلي، ومنهم مَن يتضرع لله ويناجيه، وكذلك وجدتُ فوجًا منهم يدخل إلى حرم الضريح، ومنهم مَن يخرج منه، وهو على يسار القِبلة. وبعد ذلك؛ أُخِذْتُ إلى حجرة إمام المسجد مباشرةً، وقُدِّمَ لي فنجان القهوة الذي لا مفر منه، وهو أول علامة من علامات الترحيب، وهذه نقطة من آداب ترحاب أهل الشرق، وتُقَدَّمُ القهوةَ حتى في المساجد.

ما زالتْ تسحرني مثل هذه الترحيبات والتحيات، خصوصًا من ذلك الشيخ الجليل، والذي كان يتوق إلى رؤيتي ثانيةً؛ فقد شرفتُه بزيارتي له. وبطبيعتي الإنجليزية الحادة جدًّا، بدأتُ بأسئلتي في الحال لإثارة النقاش. هل سيدلي بآرائه لي حول زيارة أضرحة الأولياء، وهي ملمح من ملامح الإسلام، واهتمام الناس الشديد بآثار الأولياء والصالحين؟ قال البروفيسور ديڤيد صمويل مارگُليوث David Samuel Margoliouth:

(انتقدَ التيارُ الإصلاحيُّ في الإسلامِ الاعتقادَ في الإصرار على حياة الأوائل في جثامين الأولياء والصالحين، وهذه الفكرة أدت إلى زيادة عبادتهم بإفراط، وربما أدت إلى الدجل ...).

وفيما يلي أقوال الشيخ – على حد تعبيره – بقدر ما يمكن أن تقدمه الترجمة؛ لأنه بالإضافة إلى ذلك، كتبَ أقواله لي:

١) يعتقد بعض الناس أن تكريم مَن في القبر وتبجيله، واحترام أضرحة الأولياء والشهداء وآل البيت، مثل سيدنا الإمام الحسين عليه السلام وغيره، نوع من أنواع عبادة الأصنام والشرك. لكن اسأل أكثر الناس جهلًا عن سبب زيارته للضريح، واسأله لماذا تُوّقِّر صاحب الضريح، سيجيبك فورًا – وبلا أدنى شك – أنه هنا في المسجد الذي به ضريح أولًا – وقبل أي شيء – لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وأن زيارته للضريح لما قدموه في حياتهم من الأعمال الحسنة، ولعل الله يقبل دعواتهم عند هؤلاء الأولياء والشهداء والأتقياء وآل البيت، وأنه لا يخطر ببال أحد – مهما كان جاهلًا – أنه يعبد إلهًا آخر سوى الله؛ بل عبادته لله وحده.

فالشيخ يرى أن زيارة ضريح الولي أو غيره من الأمور المستحبة؛ لأنها تترك انطباعًا حسنًا في روح الزائر، وتحثه على الاقتداء بما فعل الولي أو بما فعل آل البيت في حياتهم من مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال. فمن الأمور المستحسنة أن الزائر يستلهم من زيارته التقوى الروحية. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «تَفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ ستِّينَ سنةٍ» [1]، وعليه؛ فإن اتهام المسلمين الموحدين بالشرك وعبادة الأصنام نوع من العبث ولا أساس له من الصحة.

---

(1) المصدر: الغزَّالي؛ أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، الجزء الخامس، صفحة ٧٤. أخرجه ابن حبان في كتاب (العظمة) من حديث أبي هريرة بلفظ (ستين سنة) بإسناد ضعيف، ومن طريق ابن الجوزي في (الموضوعات)، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند (الفردوس) من حديث أنس بلفظ (ثمانين سنة). وإسناده ضعيف جدًا، ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ (خير من قيام ليلة).

٢) وفيما جاء عن ابن سينا – الفيلسوف المسلم في القرن الحادي عشر – أن الهدف من الدعاء للموتى، وزيارة أضرحتهم هو التوسل لمساعدة تلك النفوس النقية، وأحيانًا تتحقق هذه المساعدة ماديًّا، وأحيانًا تتحقق روحيًّا. فيمكن مقارنة النوع الأول من المساعدة بما يتلقاه الجسم من الدماغ، ويتحقق النوع الثاني بتنقية العقل من كل فكر عدا الله سبحانه وتعالى. وكان خادم المسجد يدخل علينا حجرة الإمام ويخرج بهدوء تام، وكان يومئ إلى الشيخ بإشارة لم أفهمها. وما هي إلا دقائق معدودة ووجدتُ نفسي بجانب الشيخ في حجرة الآثار النبوية، بعد أن فُتِحَتْ الأبواب للزيارة. ووجدتُ ستة آثار للنبي صلى الله عليه وآله وسلم محفوظة في مسجد الإمام الحسين عليه السلام، وهي:

١) شعرتان من لحية النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثبتة في شمع مع باقي الشعرات داخل اسطوانة معدنية محاطة بصندوق زجاجي ذي قبة وهلال فضي.

٢) مكحلة تشبه الملعقة وهي من النحاس الأصفر غُلِّفَ مقبضها بغلاف من الفضة من المرجح أن يكون أضيف إليها فيما بعد.

٣) ثلاث قطع من قميص النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٤) ثوب يلبسه النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٥) نسخة من مصحف الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بأحرف كوفية على جلد من الغزال، حوالي ٥٠٣ صفحة محفوظ في صندوق خشبي.

٦) نسخة من مصحف الإمام عثمان بن عفان رضي الله عنه بأحرف كوفية على خشب الكستناء، حوالي ١٣٥ صفحة.

ومن أثمن الآثار على الإطلاق هو رأس الشهيد الإمام الحسين عليه السلام المحفوظ في حجرة منفصلة تحت قبة عظيمة. لكن لم تكن لدي الفرصة لرؤيته بالتفصيل، بل قدم الشيخ كافة المعلومات عنه بما فيه الكفاية. وإن هذه القبة العظيمة محروسة حراسة شديدة؛ لأنه يقال إن أميرًا ما في عصر محمد علي باشا أرسل رجلين إلى القبة، ليرى ما بداخلها، وعندما عاد الرجلان، أصيب أحدهم بالعمى والآخر بالخرس. وعلى أي حال؛ فقد أخبرني الشيخ أنه تشرف بدخول الضريح بعد بضع سنوات، عندما تنبَّه إلى أن الضريح يحتاج إلى ترميم، فكتب تقريرًا يرصد حالة الضريح إلى الأوقاف، والتي هي بدورها قامت بالإصلاحات اللازمة.

كما أخبرني الشيخ أن الأمير حسن – الذي بنى الضريح للرأس الشريفة – صنع لها تابوتًا من الأبنوس مزينًا بالعاج والفضة، ومغطى بالحرير المطرز. ويرى الشيخ أن التابوت الأصلي قد تغير، وعليه نقوش وكتابات بخيوط فضية. ويوجد على باب الضريح أربع حلقات فضية، وحول المائدة التي وُضِعَ عليها التابوت ثلاثة وعشرون جَرَّة من أجود أنواع الكريستال تحمل اسم السلطان الظاهر قنصوه أبو سعيد، والآية القرءانية ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ (١).



(١) سورة النور: ٣٥

الفصل الرابع
مأدبة، وخَلوة التصوف الإسلامي، والحضرة الصوفية المهيبة

«لطالما كانت مصر تربة خصبة للنزعة الصوفية، فامتددت جذور الزهد المسيحي هناك. وخلال القرون الأولى من زمننا، قطنَ آلافُ السُّوَّاحِ في صحراء طيبة، ومارسوا تقشفهم وزهدهم الديني بحذافيره. فلا ندري ما هي العلاقة السرية التي توجد بين مناخ وادي النيل وطبيعة سكانه، ولكن يكفي تقديرًا دور المؤرخين العرب، فقد وُلِدَ التصوف العربي وشُكِّلَ في هذا البلد».

فيلد؛ كلاود، **أهل التصوف والأولياء في الإسلام** (١)

إنه من دواعي فخري أني تشرفتُ بدعوة الشيخ أحمد محسن – هو الشيخ المسئول عن ضريح الإمام الشافعي ﵁ – إلى مأدبة على طريقة أهل الشرق، بمسجد الإمام الشافعي ﵁ في الصحراء خارج أسوار القاهرة، للاحتفال بمولده، وهو أحد أعظم الموالد التي تُقام في مصر. وكانت تُوزَّع علينا كتيبات صغيرة تتحدث عن هذا الإمام العظيم الذي هو أحد أئمة المذاهب الفقهية الأربعة، وتفخر مصر – بطبيعة الحال – بأنه مدفون في أرضها واحد من هؤلاء الأئمة الأعلام، وأن قبره شهير بما فيه الكفاية.

ويهب العوام والمحبون هباتهم وعطاياهم، مما جعل أوقاف مسجد الإمام الشافعي غنية جدًّا. والشيخ أحمد محسن مسئول أيضًا عن ضريح الإمام الليث بن سعد ﵁ لكون الشيخ عضو

---

(١) النسخة الإنجليزية الأصلية بعنوان: (Mystics and Saints of Islam) تأليف: فيلد كلاود (Claud Field).

في الجمعية العمومية. ثم استقبلنا الشيخ الكريم الودود في بيته الأنيق بجوار المسجد، وكان استقباله لنا كعادة الشرقيين يتميز بالحفاوة والكرم، كما لو أن البيت والمسجد في حوزتي!

وبطبيعة الحال يأتي الاستمتاع الأول بالنسبة لي هو فنجان القهوة الذي يُقَدَّمُ للضيف في بداية الترحيب به، ثم بدأنا نتحدثُ في السلاملك. عقب ذلك؛ استأذن الشيخ وأخوه – كعادة أهل الشرق بطريقة مهذبة – من أجل الوضوء؛ لأنه قد حان وقت صلاة الظهر.

انطلق الأذان من مئذنة المسجد. وكان المسجد مزدحمًا للغاية، مما جعلني أتراجع عن ذهابي إلى المسجد. كنتُ أودُّ لو أنني معهم في المسجد لأرى ماذا يفعلون، لكن لم أستطع من شدة الزحام. هرولتُ إلى إحدى النوافذ المفتوحة لأرى صلاة المسلمين في نهاية القِبلة، مما جعل رؤيتي لهم أفضل وأكبر من التواجد في الصفوف القريبة من المصرين بالداخل.

كان تركيز المصلين في صلاتهم تركيزًا عجيبًا، لا يخطر ببالهم شيء غير الخشوع فيها، وأن سجودهم على الأرض كان فيه شوق منهم لإخضاع أنفسهم لإلههم الواحد.

وبعد أن انتهت الصلاة، ذهب المصلون إلى الضريح، أما أنا فقد عدتُ إلى بيت الشيخ، وقابلتُ عددًا من أقاربه الشباب، ومن بينهم ابنه، وكان حديثهم إليَّ بالإنجليزية، وكانوا يتحدثونها بطلاقة. لكنهم كانوا يرتدون الجلباب المصري (الجلَّابية)؛ لأنهم كانوا في عطلة. إلا أنهم إذا ذهبوا إلى مدارسهم بالقاهرة، ارتدوا ملابس أوروبية حديثة، مثل جميع التلاميذ الذين يدرسون في المدارس الحكومية للأسف الشديد.

وفي طريقي إلى البيت، انتبهتُ إلى منظر بهيج لسفينة تعلو قبة الإمام الشافعي ﵁، وأوضح لي الشيخ أن السفينة ترمز إلى الشافعي نفسه حيث كان يُعرف ببحر العلوم، وأن السفينة مصنوعة بحيث تحتوي على كمية من الحبوب حتى يأكل الطير في أحد طرفيها، وجالون

من الماء في الطرف الآخر. والمسئول عن السفينة هو خادم المسجد، ويفتح الباب أمام أي مسلم يرغب في وضع الحبوب للطير.

إن المسلمين بطبيعتهم محبون للطيور بكافة أشكالها وألوانها، ولديهم كرم وحُسن معاملة مع الطيور، ويوفرون الماء والغذاء دائمًا لهم. وفي الغالب يربطون هذا الكرم والإحسان إلى الطير بتوقير موتاهم وتعظيمهم لهم، كما يفعلون مع الإمام الشافعي رضي الله عنه على قبة ضريحه. وفي الجزائر العاصمة، يوجد في كل قبر أو ضريح تقريبًا بئر صغير للشرب، والذي تملؤه النساء في زيارتهن المعتادة في يوم الجمعة. وفي صعيد مصر، لاحظتُ أن الطيور تطير في أمان، وكأنها تريد أن تُظْهِرَ حبها وامتنانها للجنس البشري، خصوصًا الأولاد الصغار الذين يداعبونهم.

وجدنا في بيت الشيخ الغداء في انتظارنا، ولاحقًا سأصف مائدة المصريين التي يعدونها لأصدقائهم. فذهبنا إلى مائدة الطعام، وأخذ كل واحد منا منديلًا حيث يقف الخادم بالخارج يحمل إبريقًا لسكب الماء على أيدينا، ونستخدم المنديل كالمنشفة.

وأخيرًا أُعِدَّتْ لنا عدة أطباق من الفاكهة والحلويات الشرقية، إشارةً إلى أن مأدبة الطعام باتت وشيكة أن تنتهي. هناك شيء يفعله المصريون فيما يتعلق بانتهاء مأدبة الطعام، وتظهر للشخص الأوروبي كما لو أن ذلك فيه نوع من البذاءة تجاه الآخرين. إن هذا الشيء عبارة عن أن المُضِيفَ أو الضيفَ إذا انتهى من طعامه، ينهض مباشرة ويغادر المأدبة، ويأخذ منديله، ويغسل يديه. قد يُعتبر ذلك من الوهلة الأولى فيه شيء من قلة التهذيب أو قلة التقدير، لكن الحقيقة عكس ذلك. ولاحظتُ أن جميع المصريين يهتمون بنظافة أسنانهم وتنظيفها عقب كل وجبة يأكلونها، وهم لاحظوا أن الأوروبيين لا يهتمون بنظافة أسنانهم ولا أفواههم عقب كل وجبة. لقد نصحَ طبيبٌ مشهورٌ فقراءَ الإنجليز في إنجلترا بتنظيف أسنانهم بانتظام عقب كل

وجبة يأكلونها، وذلك باستخدام قليل من الصابون ومسحوق الطباشير، باعتبار ذلك أكثر أنواع معجون الأسنان فعالية وأرخصها.

وتطرقتُ بحديثي – بعد ذلك – إلى صداقة المسلم مع اليهودي؛ فقد كان يجلس على أحد جانبي المائدة شابًّا يهوديًّا من القاهرة، وكانت لديه علاقة وثيقة بأسرة الشيخ، وكانت الأسرة تتشرف دائمًا بوجود الشاب اليهودي على مأدبة الطعام حتى دون دعوته. وأثناء عودتنا إلى القاهرة، أخبرني اليهودي أنه عاش مع المسلمين كأصدقاء وجيران طوال حياته، وأن لغته الأم هي اللغة العربية، وأن المتطرف دينيًّا من المسلمين هو لا يعرف شيئًا البتة عن دينه.

ثم كانت لي زيارة رائعة بدعوة من الشيخ الدمرداش إلى مسجد الطريقة الدمرداشية الصوفية – شيخ الطريقة – بضواحي القاهرة، يوم الخميس، وكان هذا اليوم مكتظ بالحشود الغفيرة التي تتجمع في المسجد لأداء ابتهالات وأذكار معينة، فكان الطريق المؤدي إلى المسجد أشبه بمعرض من المعارض.

استقبلنا الشيخ بسماحته المعهودة، في بيته الفسيح المجاور للمسجد، والذي مثل أي بيت من بيوت الأثرياء في مصر – في ذلك الوقت – في جميع أنحاء مصر، في طور التوسيع. كان الأمر مثيرًا للاهتمام، ونحن في جوٍ شرقيٍّ قديمٍ، والذي يُثريه القوة الروحية لضريح الشيخ الدمرداش الكبير. فيتجمع عدد كبير من مريدي الطريقة عند الضريح في ذكرى مولده في كل عام، ويجلسون في حجرة مخصوصة في نهايتها فناء، بحيث كان بإمكاني سماع أصوات بديعة تلعب على البيانو، حيث كانت ابنة الشيخ هي التي تعزف عليه؛ كانت تعزف أحدث الموسيقى الباريسية.

ومثل أغلب المشايخ المسئولين عن الأضرحة المهمة، فإن الشيخ السيد عبد الرحيم الدمرداش هو شيخ الطريقة الحالي؛ لأنه من ذرية الولي الكبير الدمرداش ﵁، ويمتلك

ممتلكات كثيرة وكبيرة. مثلما يعتبر البيانو – الذي في بيته – علامة على التطورات الحديثة في الحرملك، مما يدل على أن الشيخ حريص على ربط الماضي بالحاضر.

بينما كنا نسير في الحديقة، انطلق الأذان لصلاة المغرب بصوت عذب من المئذنة، وبعد الاستمتاع بلحظات الغروب الرائعة التي أضاءت المشهد كله حولنا بجمال بديع، أخذنا، بمجرد انتهاء الصلاة عند قبر المسجد على يد الشيخ نفسه؛ إلى حد ما أثار دهشة الناس المجتمعين هناك؛ لأنه من الواضح أن الزوار الأجانب نادر ما يأتون إلى هذا المكان، حيث أنه غير متوفر النعال. بقي العديد من الرجال بعد صلاة الفرض من أجل المناجاة وأورادهم الصوفية، جالسين على السجادة، وأيديهم على صدورهم، ويمكن للمرء أن يسمع أصوات الأنين الهادئة، حيث تفلت منهم كلمات غريبة في مناجاتهم. فكان حول محيط ضريح الولي الكبير نفسه العديد من الناس يتزاحمون ليكونوا بالقرب منه، وبعضهم كان يُقَبِّلُ المقصورة الخشبية.

وللطريقة الدمرداشية ما يميزها من المبادئ، مثل تلك الخاصة بالماسونيين [1]، لا يتم الكشف عنها للمبتدئين، ومثلهم، وللطريقة صندوق خيري للأرامل والأيتام من الأعضاء.

---

(1) في حقيقة الأمر لم يحالف المؤلفُ التوفيقَ في تشبيهه هذا؛ لأن الصوفية في منهج أهل السُنة والجماعة ليست لها أي طقوس أو شعائر مشابهة للماسونية، ولعل كان قصد المؤلف (في زمنه) تقريب المعنى (فقط) للأوروبيين؛ لأن الثقافة الأوروبية تعرف فقط الماسونية، ولا تعرف التصوف الإسلامي، ولا تعرف معنى (العهد) في التصوف. ودليل ذلك: أن المؤلف استخدم ألفاظ كثيرة جدًّا من الثقافة الأوروبية، مثل: (قديس: Saint)، ومعروف أنه ليس في ديننا عندنا قديس أو راهب؛ بل يوجد صوفي، أو ولي من الأولياء، أو رجل صالح (Sufi)، والصوفي ليس بقديس؛ بل يصيب ويُخطئ، (روحانية/ باطنية: Mysticism)، وليس في دين الإسلام باطنية أو روحانية؛ بل يوجد علم التصوف (Sufism)؛ لأن التصوف علم من دائرة العلوم الشرعية، وليس فيه أسرار وعقائد باطنية. هذا كله ترجمتُه إلى العربية بثقافتنا وبألفاظنا الدينية.

الصلاة والإخلاص وخدمة البشرية هي أهداف أولئك الذين يتبعون شيخ الطريقة. ويشمل قسم التنشئة (كما أفصح عنه ذات مرة أحد الأعضاء المعتمدين) الكلمات:

(أنت شيخي ومرشدي إلى الله يا سيدي الدمرداش).

يأخذ المبتدئُ العهدَ (بعد أن يتوضأ)، ويجلس على الأرض مقابل شيخ الطريقة، ثم يقبض الاثنان على يديهما اليمنى مغطاة بكُم الشيخ. والعهد يتضمن اعترافًا وندمًا على ذنوبه وخطاياه، وقَسَمًا بالتوبة، متوسلًا بنعمة الله ومغفرته، ويردد وراء شيخه:

(توبت إلى الله، ورجعت إلى الله، وندمت على ما فعلت من الذنوب والمعاصي، وعزمت على ألا أعود إلى معصية تغضب الله، وبرئت من كل دين يخالف دين الإسلام، وأشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم).

وبعد الانتهاء من صلاة الليل، يرتدي الرجال ملابس بيضاء ويذهبون إلى خلواتهم؛ كل مريد من المريدين له خَلوة خاصة به، حيث يتعين عليهم البقاء لمدة ثلاثة أيام بلياليهن، ثم يخرجون فقط لأداء صلاة الظهر في المسجد. فيجب أن يحرموا أنفسهم من كل نوم، وأن يجاهدوا أنفسهم قدر المستطاع. وللتأكد من ذلك، يجول خادم المسجد بجولة في كل خلوة ينادي:

(لا إله إلا الله!)

وإذا لم يرد المريد على خادم المسجد بقوله:

(محمد رسول الله!)

فإن الخادم يفتح باب الخلوة، ويُخْرِجُ المريدَ ليغتسل ثانيةً حتى يطرد عنه النوم، ثم يعود إلى خلوته لمجاهدة النفس وتربيتها.

وعندما ينتهي وقت الخلوة، يأتي الشيخ مرتديًا أيضًا الزي الأبيض، ولكن على رأسه عمامة خضراء، ويصحبه عدد من مريدي الطريقة، إلى كل باب من أبواب الخلوات لإخراجهم؛ والكلمة الوحيدة التي تُقال لهم:

(الله!) (الله!)

فهذا بمنزلة (إذن) من الشيخ بالخروج من الخلوة.

ثم يذهب الجميع إلى المسجد، فيستهلون مجلسهم بتذكير الحاضرين بأئمة الصوفية الأوائل، حيث يستغرق العقل استغراقًا شديدًا – حتى يصل إلى درجة العشق – فيكون تعبيره الوحيد عن هذه الحالة هو قولهم:

(الله!) (الله!) (الله!) (الله!)

فمالتْ أجسادهم وأعناقهم شوقًا [1].

---

(1) يحضرني هنا هذه القصيدة البليغة التي تُعبِّرُ عن مقصود المؤلف:

نسيمُ الوصلِ هَبَّ على الندامى ... فأسكرهم، وما شربوا مُـدَامًا

ومَالَـتْ منهم الأعنـاق شوقًا ... لأن قلوبهم مُلِئَتْ غـرامًا

فناداهـم: عبـادي لا تنامـوا ... يَنالُ الوصلَ مَنْ هَجَرَ المنـامَ

ينال الوصلَ من سَهِرَ الليـالي ... على الأقـدامِ والتزم القِيَـامَ

وما مقصودهم جنـات عدن ... ولا الحورَ الحِسَانَ ولا الخِيـامَ

سوى نَظَر الجليل فـذا مُنَاهـم ... وهذا مقصد السـادة الكِـرامَ



صورة لشارع من شوارع القاهرة: شارع الحلمية

وعندما تنتهي الحضرة الصوفية، تكون هناك مأدبة عظيمة في انتظارهم، ثم بعدها يعودون إلى حياتهم وأعمالهم اليومية. ويسأل أهل الغرب – الذين يرون أن هذا الوجد الصوفي والجذب من الألغاز الصعب فَهمها –: ماذا هذا يعني للرجال المشاركين في هذه الحضرة؟ ما هي الروح أو ما هو الدافع وراء كل هذا التجلي؟

صديق مصري لي، وقد تخرج في إحدى الجامعات الإنجليزية، عندما تعرفت عليه جيدًا، أخبرني أنه في بعض الأحيان كان يحضر أحد الموالد، والتقى بشيخ عجوز عالمٍ، وسأله للفَهم عما هو جوهر عقيدة الوجد والجذب في الإسلام، وهل هذا المعنى كما هو الحال في أي دين آخر. فأوضح له قائلًا:

إن المفهوم عنها غير صحيح بالمرة، وأعتقد يقينًا أن تعاليم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ضدها. إن فكرة الصوفي في الخلوة لا تعني أبدًا – كما يدَّعي المُدَّعون – الانسحاب من الواجبات الاجتماعية والحياة العامة. فمن بين كل الأشياء، كانت تعليماته واضحة بأنه: (لا يوجد رهبنة في الإسلام)، ولكن يجب أن يكون لكل رجل وصول مباشر إلى الله بنفسه. ومع ذلك؛ في مصر يمكن أن تجد بسهولة أعداء للتصوف. وا أسفاه! قد شارك العديد من المسلمين البارزين في طقوس الصوفية، مما جعل النُقَّاد الأجانب يحكموا على الإسلام ككل من خلال أفعال لم يفهموا معناها، واعتقدوا أن العلماء وغيرهم يشاركون بعض مسلوبي العقل أفعالهم، وهذا خطأ من النُقَّاد الأجانب الذين لم يُحْسِنُوا فَهم الدين.

قال صديقي:

(لا أستطيع شرح الأمر، لكن دعني أسألك: أليس من الجيد أحيانًا فصل العقل عن أشياء في هذه الحياة، في تأمل تام للإله العظيم؟ حضرتُ إحدى الحضرات الصوفية على هذا

النحو، هذا الأسبوع، حيث توصلتُ إلى العبادة النقية. والشيخ الذي حضرتُ معه يتمتع بقوة كبيرة. أتمنى أن أكتب لك المقاطع العربية الجميلة التي تلاها في منزله).

ناقشت الأمر مع الشيخ عبد الرحيم الدمرداش، وهو رجل عالِم، لديه تقدير للأفكار الحديثة وحتى الغربية، دون أي أثر للتعصب، وكذلك مع شيوخ آخرين على اختلاف درجاتهم وطوائفهم. ذكرتُ للشيخ الدمرداش أن الغزَّالي ﷺ وأئمة آخرين كانوا يرفضون إظهار الوجد الصوفي، مشيرين إلى أنها تستحوذ على روح خبيثة؛ تمامًا كما قال ويسلي Wesley في انتقاده لبعض أتباعه العاطفيين، الذين أُلقي بهم في حالة من الإثارة الكبيرة التي تقترب من النشوة القلبية:

(الشيطان يحاكي أحيانًا عمل النعمة).

لقد ذكرني قوله بقول شاعر الإسلام الصوفي جلال الدين الرومي ﷺ، الذي قال:

(إن الرجل اللئيم يسرق لغة الدراويش ليتلو على البسطاء أسطورة منها يخدعهم بها).

وباختصار، فإن كل أفعال الدراويش [1] هي محاولات من أجل إكساب القلب حقيقة الدين، ووصل إلى هذه الدرجة رجال كثيرون جدًّا، وكذلك النساء المسلمات، مثل: رابعة العدوية ﷺ، فوصلوا إلى درجة دفن النفس، وقطع علائقها بالدنيا وشهواتها ورغباتها ونزواتها، فأوصلهم الله إليه بعد مجاهدة طويلة.

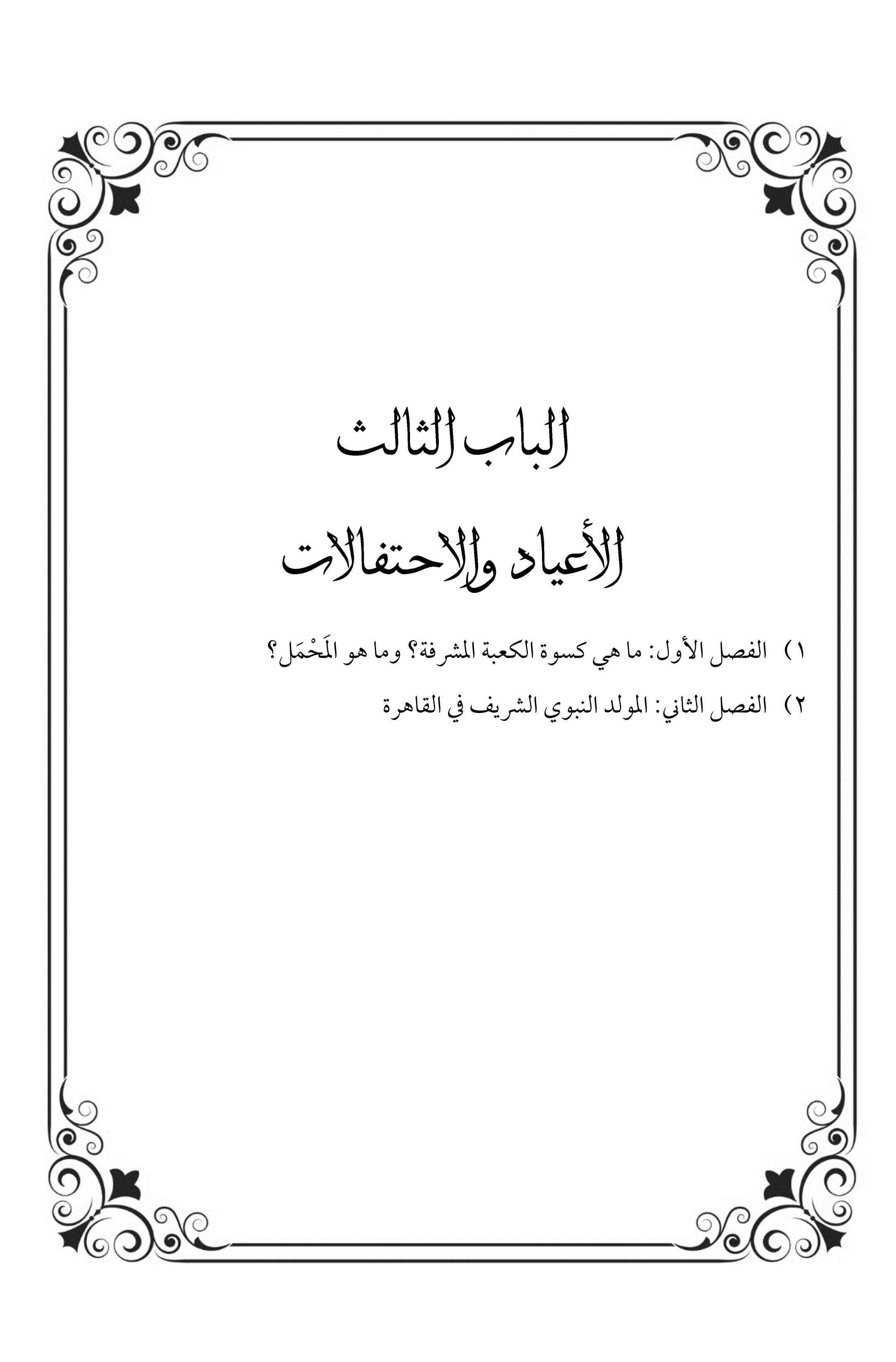
أما بالنسبة للصوفية الذين يتشوق بعض زوارهم لرؤيتهم في القاهرة، فإنهم يدورون، مثل (الهزازات) في إنجلترا وأمريكا. ومع ذلك، هناك طائفة واحدة من الصوفية الراقصين، والتي ولدت في أنقى التصوف، واستمرت لمدة ستمائة عام، أسسها الشاعر الصوفي العظيم

---

[1] كلمة (الدرويش) من أصل فارسيٍّ، وتعني الفقير، ومعناها: فقراء الصوفية. والفقر ليس معناه عدم الغنى، وإنما المريد؛ لأن المريد دائمًا فقير إلى الله حتى لو امتلك كنوز الدنيا كلها.

جلال الدين الرومي ﵁ الذي أسس المولوية، وأمر بمرافقة الناي لتعزيته في ألم الانفصال عن صديقه المنفي. وكان شيخ الطريقة دائمًا من نسل الشيخ الكبير مؤسس الطريقة المولوية. كان القصد من دوران مريدي الطريقة المولوية أن يرمز إلى دوران الكوكب حول شمسهم المركزية وجاذبية المخلوق للخالق! ففي تركيا، حضور هذه الطريقة قويٌّ جدًّا.





الباب الثالث

الأعياد والاحتفالات

١) الفصل الأول: ما هي كسوة الكعبة المشرفة؟ وما هو المَحْمَل؟

٢) الفصل الثاني: المولد النبوي الشريف في القاهرة

الفصل الأول

ما هي كسوة الكعبة المشرفة؟ وما هو المَحْمَل؟

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾

القرءان الكريم؛ سورة الحج، آيات: ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢

من أعظم أحداث العام في مصر وهو خروج كسوة الكعبة المشرفة إلى مكة، فيبدأ الناس في التطلع إلى الاحتفال بالمحمل، ليس فقط بمناسبة انطلاق الحجاج إلى المدينة المقدسة، ولكن أيضًا حدث لحظة عظيمة لجميع الرجال الذين هم أصحاب التقوى والإيمان، وخاصة للفقراء الذين لديهم آمال قليلة في القيام بالرحلة بأنفسهم.

لمعرفة موضوع ما بدقة، يُقال إن على الرجل أن يكتب كتابًا عنه. أعتقد حقًّا أنه لا يوجد رجل على قيد الحياة يمكنه أن يقدم سردًا واضحًا لمحمل مصر، الذي لم يؤلف كتابًا عنه، أو ساعد في كتابته.

لمدة شهر كامل تشبثتُ بالسجادة المقدسة، كما لم تتح الفرصة لأي مسلم، في محاولة جادة لفَهم أسرارها. وخلال ذلك الوقت، لم أجد سوى رجلين لديهما أي شيء يشبه المعرفة الواضحة بأصلها وأهميتها، وتصنيعها ومواردها المالية، واستخدامها ووجهتها. كان أحدهما عينته الحكومة لتولي المسؤولية عنه، من حياكة الخيط الأول إلى رحيله النهائي، والذي حمل العبء المقدس ما لا يقل عن ثماني مرات إلى الكعبة في مكة نفسها. أما الرجل الآخر فهو محمد لبيب بك البتنوني الذي رافق سمو خديوي مصر في الحج عام ١٩٠٨ كمؤرخ لما كان يعتبر حدثًا وطنيًّا.

كان اهتمامي الأول هو الحصول على الإذن لزيارة المكان الذي يُنسَج فيه ما يسمى بالكسوة كل عام، وحيث يتم تطريز المحمل وأغطية الأبواب الجميلة وغيرها من الزخارف المشرفة. المكان الذي يتم فيه العمل هو منزل عربي قديم كان يومًا ما قصرًا ملكيًّا ثانويًّا مع جدران خارجية، ولكنه يفتح تحت بوابة مقوسة في الفناء المربع، والذي يعطي في الحال الضوء والفضاء والهواء للمنزل بما يتعارض مع انطباع الشارع الضيق الملتوي. القصر، المعروف الآن باسم الخرنفش، خصصها رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وآله وسلم من أجل صنع الكسوة في أوائل القرن الماضي.

اِصْطُحِبْنَا على الفور إلى غرفة طويلة لرؤية أنوال الغزل، حيث يُحَضَّرُ الحرير الأصفر الخام قبل صبغه. بعد ذلك، رأينا النسيج الفعلي للكسوة، كيف أتى بهذا الاسم، ولم يكن من الممكن تخيله عندما رآه المرء. في الواقع؛ بالطبع، هو الغلاف الخارجي للكعبة المشرفة، ولا يطلق عليها اسم (سجادة) إلا الأوروبيين الذين يصرون على تسميتها؛ والمثير للفضول، في نفس الوقت، أن المحمل، وهو جمل، يذهب بالفعل إلى مكة بداخله سجادة، ويعيده إلى

القاهرة. لا عودة لأي سجادة للقاهرة. السائحون الذين يعتقدون أنهم يرون عودة السجادة المقدسة لا يرون سوى المحمل، وهو يعود فارغًا تمامًا.

وتشكل الستائر، سواء الخارجية أو الداخلية لأبواب الكعبة المشرفة، أمثلة رائعة على فن التطريز بالذهب والفضة، مع ألواح من الساتان الأخضر والوردي على أرضية سوداء، بالإضافة إلى كتابة مطرزة بالإضافة إلى التصاميم التقليدية. يقول بورتون Burton:

(إن الستارة التي تغطي الجزء الخارجي من باب الكعبة تسمى "حجاب وجه الكعبة"، وهذا يدل على أن الكعبة مرئية كعذراء أو عروس، وهي فكرة وجدت طريقها إلى شِعر الشرق، الكعبة تسمى "عروس مكة"، أو "قدس الأقداس" – بالمفهوم الأوروبي – يحرسه مَخْصِيَّان [1] وكأنه دار عروس جميلة. ومع ذلك، لم أجد أي تأكيد على ذلك.

ذهبنا الآن إلى الفناء، وجُلِبَ جَمَلَين منظرهما حسن جدًّا، والذَين هما فقط لغرض نقل المحمل إلى مكة، أحضروها من أجلنا لنراها. وهي كبيرة الحجم وذات لون كريمي يميز أجود سلالات الإبل.

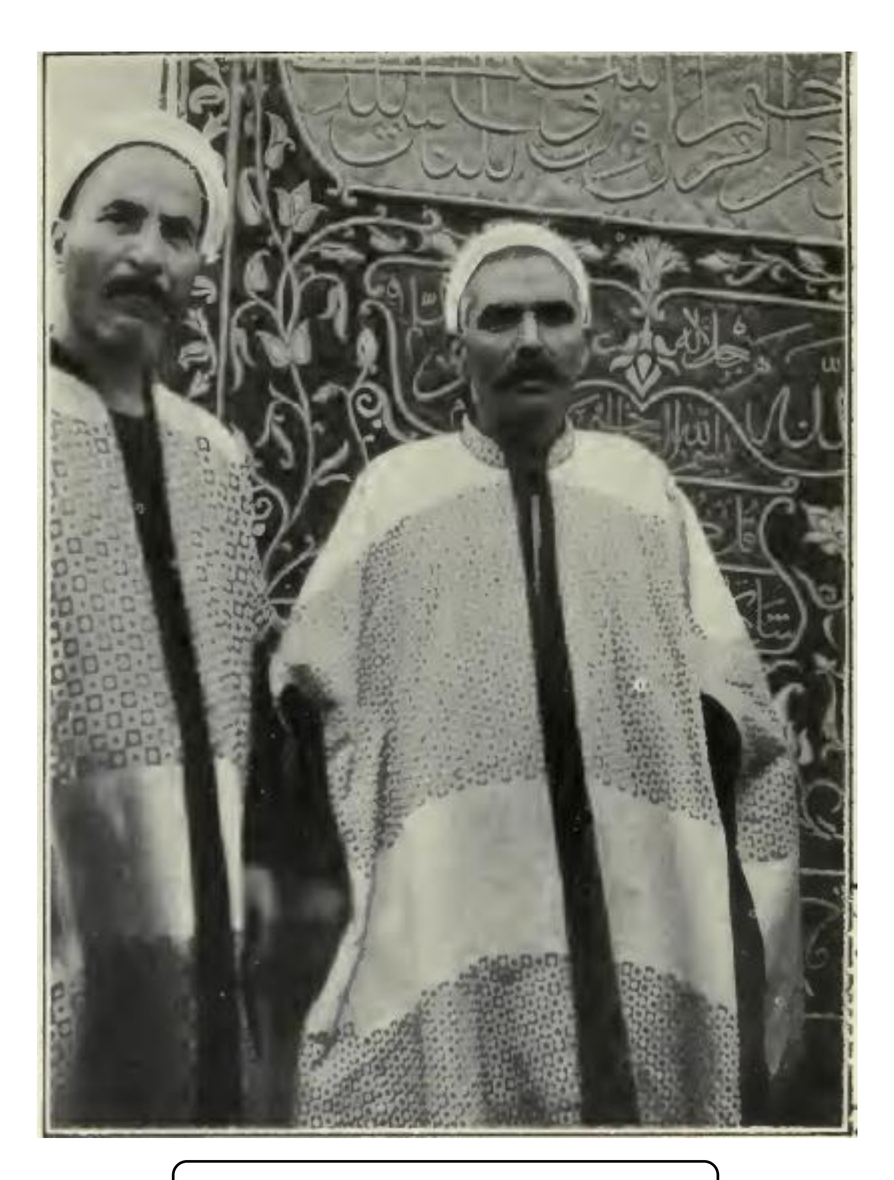
(1) المَخْصِيُّ هو رجل اِسْتُئْصِلَتْ خصيتيه، وعادة يشير هذا اللفظ من أجل وظيفة اجتماعية محددة.



المحمل في القاهرة



الغطاء الخارجي لكسوة الكعبة قبل خروجها من مصر إلى الكعبة



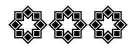
اثنان من العاملين على كسوة الكعبة المشرفة



نساء مصريات يزرن المحمل في العباسية

عندما وقفنا بالقرب من المحمل، استطعنا أن نرى جالسين على الأرض على مسافة قصيرة، في صف مزدوج، حوالي أربعة وعشرين رجلًا من الشيوخ، يواجهون بعضهم البعض، مع شمعدانين كبيرين يقفان في كل طرف، بين الصفوف، ويرددون مدح الرسول وقراءة الأحاديث عنه. في مرحلة معينة وصلوا إلى نهاية المدائح النبوية، ثم ارتفعت كل الأيادي إلى الصدر مرفوعة كعلامة الدعاء الصامت. ثم نهضوا جميعًا، وتجمعوا حول المحمل، وغنوا قصيدة قصيرة أخرى في مدح نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم، ورفعوا أيديهم مرة أخرى إلى الصدر متوسلين، وكل الناس يقلدونهم.

الاحتفالات المرتبطة بالمحمل أعطت الخديوي إسماعيل فرصة أخرى للإسراف البري الذي جلب الخراب على بلاده. كان أحد بنود إنفاقه الباهظ هو إنشاء أواني ضخمة في القاهرة يذوب فيها السكر، حتى يتمكن الناس من الشرب بحرية من الشراب لمدة ثلاثة أيام، وهذا إحياء لعادة قديمة في أوقات الفرح. في تلك الأيام كان هناك وظيفة منفصلة لحارس الحلويات، لكن الموظف مسئول الآن عن توزيع الصدقات بين بعض الفقراء في شبه الجزيرة العربية.



الفصل الثاني
المولد النبوي الشريف

«من المؤكد تمامًا أن محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد حصل على التأييد المطلق من أتباعه الأوائل والمبارزين من خلال كسب قلوبهم أولًا ... وقد استحوذ على محمد خوف من أعمق وأعمق حقيقة في الوجود. كل ذرة من كيانه تجاوبت معها واشتعلت قلوب أتباعه بلهب روح الرسول».

دكتور جي. إم. غرانت، **ديانات العالم**

أعظم عيد ميلاد على مدار العام، بالطبع، هو المولد النبوي الشريف، الذي يُحْتَفَلُ به في القاهرة ببهاء نادرًا ما يحققه الزوار العاديون. في الحقيقة، رفض ستانلي لين بول في كتابه الشهير عن القاهرة الحدث باعتباره لا يستحق الذكر، بعد أن توقف عقده في القاهرة:

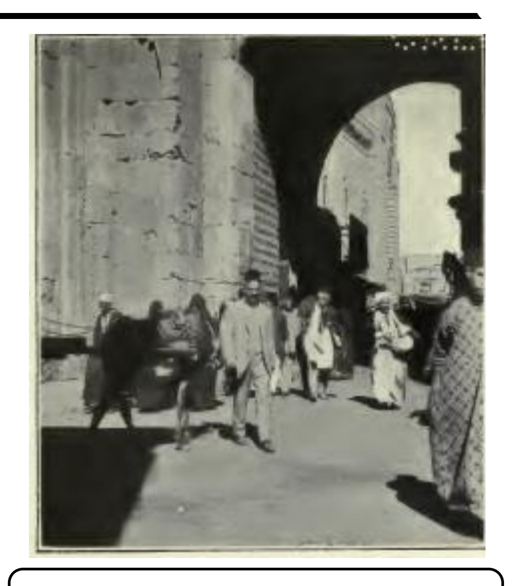
(الأرض المُهملة تسمى الأزبكية، ثم بحيرة كبيرة في أعالي النيل، لكنها قطعة أرض مفتوحة جيدة عندما يتراجع النهر إلى ضفافه).

إن القول، كما يفعل، أن (الخِيام اختفت في الغالب)، هو أكثر من مجرد تضليل؛ لأنه نقيض الحقيقة. أتخيل أنه لا يوجد احتفال سنوي في أي مكان في العالم يمكن مقارنته بمولد النبي، حيث يُحْتَفَلُ به في الوقت الحاضر في القاهرة؛ حيث تشكل الساحة الضخمة من الخيام المزخرفة والمضيئة التي أقيمت في العباسية إحدى ضواحي القاهرة القريبة مشهدًا من روعة لا مثيل لها.

ومع ذلك، يبدأ المولد، في وقت مبكر من اليوم، عندما يكون جميع مواطني القاهرة حاضرين من أجل الموكب الكبير الذي يتجمع في ميدان باب الخلق وينطلق إلى العباسية. هذا

الموكب لا يزال مشهدًا رائعًا، إذا ما جُرِّدَ من بعض الإسراف الشرقي المخيف وهيجان الدراويش، فقدْ فَقَدَ القليل أو لا شيء من التنوع واللون، واهتمامه البشري الشديد. يحل المولد النبوي هذا العام (١٩١٢) في ٢٩ فبراير، والذي يوافق اليوم الثاني من ربيع الأول، الشهر الثالث من التقويم الهجري. هذا التاريخ هو مولد النبي ووفاته. رؤية الموكب، كما فعلت، من شرفة مسجد السلطان المؤيد، حيث واجهنا الموكب حيث جاء ببطء عبر ظلال بوابة باب زويلة القديمة الجميلة إلى الشارع المضاء بنور الشمس، مع تلويح جميع اللافتات الملونة. لم أستطع أن أتخيل مشهدًا أكثر تميزًا للشرق، في المزج الفضولي للمتعة الخالصة في جعل عطلة الشعب مع الاحتفال الديني. لقد كان يومًا حقيقيًّا، ولم يتضاءل فيه الفرح لأن كل رجل صرخ دائمًا بصوت عالٍ لما يرى عظمة الله.

بين الحين والآخر تغلق المجموعات، يتحرك فيها دافع مشترك؛ كانوا يهتفون ويرقصون، ثم يضعون أيديهم على صدورهم، يدعوا الله الدعاء بأن يرزق الجنة للشيخ الذي كان معهم. كانت لحظات صلاتهم فقط هي التي أوقفت قرع الطبول المستمر الذي يبدو أنه سمة خاصة لهذه الحادثة، لأن كل رجل وصبي تقريبًا يحمل في يده اليسرى نوعًا صغيرًا من طبل الذي كان يضرب عليه بحزام قصير، ويستخدم في وظائف دينية معينة، وفي الأيام الخوالي كانت هي الأداة التي تجذب عدد لا يحصى من الدراويش إلى عروضهم القادمة. حتى عندما تتحول المجموعة، لشراء الطعام وتناول الطعام، من المدرجات المحمولة من البائعين الذين لا حصر لها وتدبيرين للكعك، والحلويات، والمكسرات، فإنهم يخترعون وسيلة ما للحفاظ على الطبول.



واحدة من أشهر البوابات في القاهرة القديمة



حشود مجتمعة من الرجال والأطفال من أجل الاحتفال بالموالد النبوي الشريف

لا أحد، بالتأكيد، يمكن أن يساعد في الاستمتاع بالطبيعة الطيبة الخلابة التي حركت كل هؤلاء القوم، وكثير منهم فلاحين بسطاء من أماكن ريفية بعيدة. كان هناك نوع من الفكرة الجماعية التي تربطهم بمصلحة واحدة، مما دفع كل رجل وصبي إلى المشاركة في طعامه مع أي شخص آخر. في كل هذا الحشد الكبير كنتُ متأكدًا تمامًا من عدم جوع أي شخص في ذلك اليوم. وهل كانت الرايات ثقيلة؟ كانت العشرات من الأيدي المتلهفة على استعداد لتحمل نصيب من العبء. المكفوفون الذين يكثرون في كل حشد شرقي، والذين يتعامل معهم المسلمون دائمًا، كواجب ديني، لطفاء للغاية، كان يُعْتَنَى بهم اليوم بأكثر من لطف عادي.

على درج الشرفة العريضة أيضًا، كان هناك بعض الأولاد المهيبين من طلاب الأروقة الأزهرية بالجامع الأزهر، يرتدون طرابيشهم الحمراء وعماماتهم البيضاء النظيفة، والرداء الأسود الطويل، أو الجبة، الذي يتدلى برشاقة من العنق. على القدمين. وفي استراحات تلك الشرفة الجميلة كان هناك كبار السن الودودين، (خدام المسجد)، الذين يسألون بين الحين والآخر عما إذا كنا نعتقد أن الاحتفال جيد أو غير ذلك.

تعرض الطرق الصوفية المختلفة بواسطة العمائم واللافتات الخاصة. وفي نهاية كل طريق كان الشيخ يمتطي حصانه، تحت حراسة مريديه، الذين يصدون الحشود بأعمدة الأعلام، ويحملونها أفقيًّا على جانبي الحصان. أتخيل أنه في الأيام الخوالي، كان هؤلاء الدراويش أكثر عرضة للمضايقات مما هم عليه في القاهرة الحديثة؛ لقد رأيت مثل هذا الرجل في مناسبة احتفالية في الصحراء الكبرى كاد يُقتل بسبب إصرار مريديه المخلصين على احتضانه؛ يكافحون مع بعضهم البعض للاقتراب بما يكفي لمجرد لمسه، إذا كانت التحية الفعلية لشخصه مستحيلة.

وبهذه المناسبة، في القاهرة، حاول عدد قليل من الناس أن يلقوا التحية والسلام من الشيوخ، لكن دون أي زحام أو إثارة. كان الشيخ يركب عادة ويده مغطاة بأكمام طويلة من رداءه، علامة على التواضع العميق في شرقي، وعيناه مغمضتان، ويتمتم بهدوء ما أعتقد أنه سورة من القرءان، وهي سورة الفاتحة:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ۝٧﴾.

ومع الموكب يرددون جماعيًّا:

(الله أكبر!) ... (الله أكبر!) ... (لا إله إلا الله!) ... (لا إله إلا الله!)

(الله ... الله ... الله!) ... (الله ... الله ... الله!)

وبعد انتهاء الموكب، راحت الحشود تتجه إلى ملذاتهم، وشق الكثير منهم طريقهم إلى العباسية.

أصبح الاحتفال برمته منضبطًا وخفيفًا للغاية، مقارنة بالأيام السابقة. فقد سعى محمد عبده إلى إلغائه تمامًا. ففي أيام سالفة، قدم العديد من الدراويش عروضًا مقززة في الشوارع، والتي نشأت في أوقات أكثر بربرية، عندما ألقى الرجال بأنفسهم في حالة من الانجراف في سعي فظ، ولكن بعد ذلك لم يكن أكثر من خدعة دجال ساخرة لفرضها على جماهير الشعب من جانب بعض المتصوفة المنحرفين عن الطرق الصوفية الصحيحة. إذا لم ينجح الشيخ الإصلاحي، محمد عبده، في إلغاء هذه الاحتفاليات تمامًا، فقد فعل الكثير لقمع ملامحها الغريبة.

في القاهرة، كانت المرحلة الأخيرة من هذه العروض في الأماكن العامة عبارة عن فساد مقزز، حيث اختلَّ الميزان، وصاروا يتعاطون الحشيش، وأصبح ثقب جسد الإنسان عن طريق سيوف تُغْرَسُ في أجسادهم هؤلاء الدجَّالين من أدوات الدجل وخداع الناس.

ومع ذلك، الآن وبعد أن تم التخلص من جميع آثار الزائدة من هذا الموكب، فقد أصبح ما يبدو في رأيي طريقة معقولة للاحتفال بمهرجان شعبي عظيم. لقد كان حقًّا مشهدًا مثيرًا للإعجاب أن نرى الآلاف من أفقر الناس يقضون عطلة، وبينما يسلمون أنفسهم لأقصى درجات المتعة، يجدون فرحتهم الرئيسة في تمجيد اسم الله، من خلال تَكرار أسمائه وصفاته الحُسنى. التكرار؟ أجل؛ لكن لا أحد يستطيع أن يبدأ بفهم أطفال الشرق هؤلاء حتى يعرفوا القوة التي يتمتع بها مجرد التكرار في أذهانهم. يبدو أن اللغة العربية ذاتها تعزز التَكرار. ومن فضل القرءان استعمال التكرار، وحتى في المحادثات العادية، فإن أشكالًا معينة من التكرار لها فائدة مفهومة في خلق تأثيرات تراكمية محددة. إن تحيات حتى أفقر الناس هي تطور تدريجي من عبارات بسيطة معينة تؤدي إلى التعبير المثالي عن الاهتمام اللطيف برفاهية الصديق. في أي لغة أخرى، ومع أي شخص آخر، فإن هذه الطريقة، التي لا تفقد أبدًا رشاقتها وسحرها غير القابل للتحديد، ستؤدي إلى شكليات لا معنى لها تقريبًا. وأما بالنسبة لعامة الناس في جميع البلدان، يبدو أن التكرار المستمر لأغاني وأمثال اليوم له سحر لا يقاوم في الاستماع إلى هؤلاء الرجال وهم يهتفون:

(الله أكبر!) ... (الله العظيم!)

لم يسعني إلا التفكير في حشود معينة أعرفها في عطلة البنوك، وأغني إلى الأبد نفس الأغنية، وأقوم بترديد نفس العبارة بلا كلل، والتي تمتلك في الوقت الحالي الهوى الشعبي.



رقص المولوية الصوفية والموسيقيين

قمت الآن بجولة في الخِيام التي لم أرها بالفعل. كانت هذه في الجانب البعيد من الساحة، وكان يشغلها في الغالب الدراويش، وعندما تتكرر كلمة (الله!) بحركة في الرأس بالكاد، إلى آخر مرحلة من الإثارة، حيث كان بعض الراقصين قد أصابهم الإرهاق من المجهود الفظيع وغير المقيد الذي أثارتهم دراويشهم تدريجيًّا.

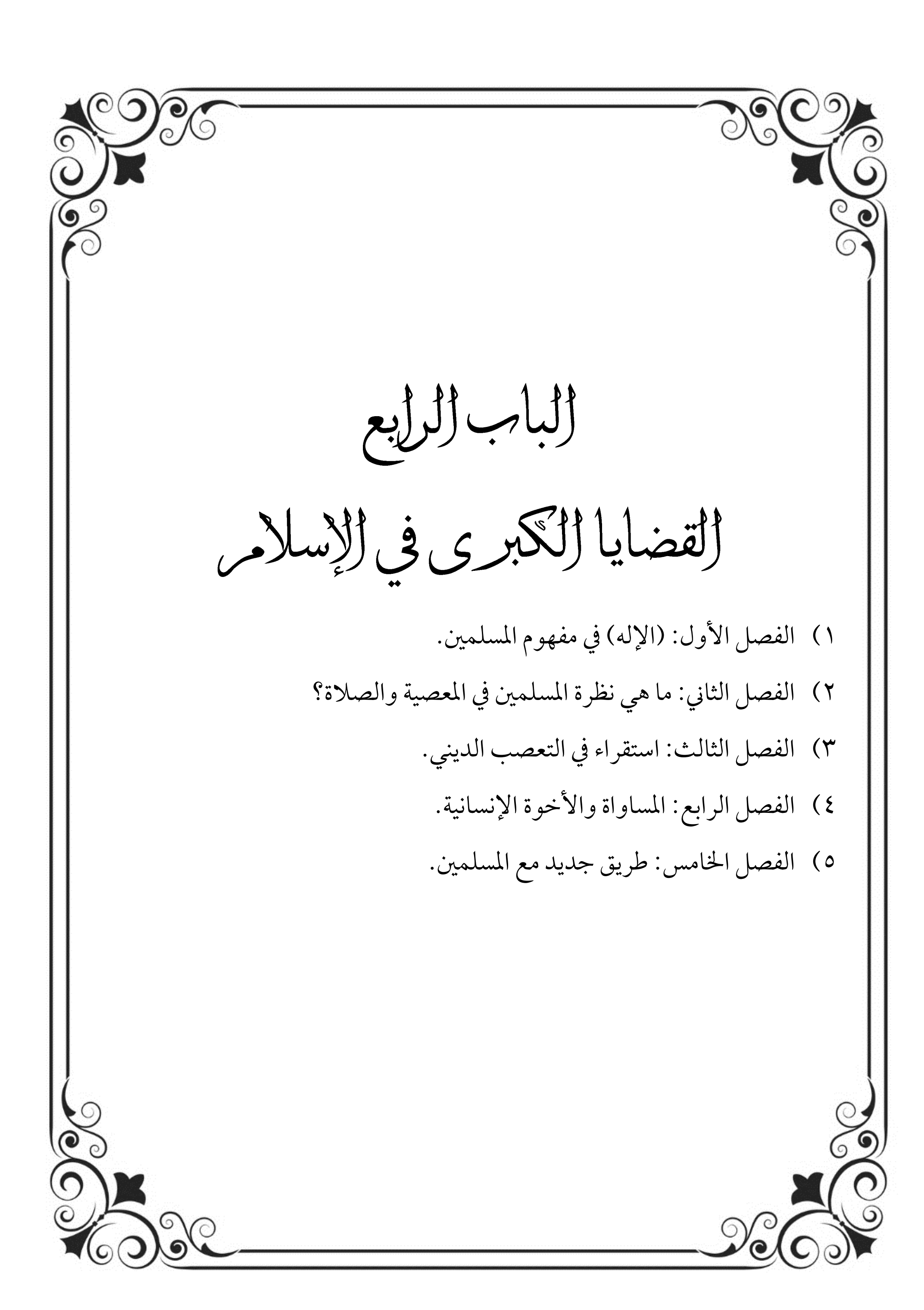
ومع ذلك، كانت أعظم علامة على الروح الحديثة موجودة في واحدة من أكبر الخيام، حيث كان الواعظ، الذي أعرفه جيدًا، يقف على منصة، ويلقي خطبة أمام حشد كبير، الذين استمعوا إلى إرشاداته الأخلاقية باهتمام عميق. هذا هو الشيخ الذي تحدثت عنه في مكان آخر، والذي يقوم بـ (بعثات) في مناطق مختلفة من مصر. كان واضحًا أنه المتحدث الأكثر فاعلية: استقبل الحاضرون نصائحه وإرشاداته وتحذيراته في صمت مطبق. بعد ذلك؛ فإذا ما شدد في كلامه، وبدا على وجوه الناس التوتر الشديد، كان يروي قصة مناسبة من الحياة الواقعية، أو من التاريخ العربي، يبتسم، أو يُضْحِكَ الحاضرين بضحكة هادئة حول الخيمة بأكملها. من بعض النواحي، كان يمكن للمرء أن يتخيل أن يكون هذا اجتماعًا لـ (مهمة الخيمة) في إنجلترا (أو ويلز)؛ لكن اللمسة الشرقية لا يمكن أن تكون مرغوبة في إحدى فترات التوقف، حيث أخرج الشيخ زجاجة الرائحة الصغيرة الخاصة به، وقدم لي مع (قَطَّارة) زجاجية، بحث أتعطر بها، وأصدقائي الآخرين الذين كانوا بالقرب مني، أعطيتهم كما أعطاني الشيخ قطرة صغيرة من خلاصة المسك النقية على راحتي اليدين.

ويمكن ملاحظة أن المسك كان الرائحة المفضلة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم (رائحة الجنة). يمتلئ الهواء في مناطق القاهرة الأصلية بهذا العطر يوم الجمعة، لأنه بعد غُسل يوم الجمعة، من المعتاد أن نرش بها الجسم قبل صلاة الظهر. لم أستطع تحديد عدد الهدايا التي حصلت عليها أنا وزوجتي من زجاجات الرائحة التي قدمها لنا أصدقاء الشيخ، دائمًا إما المسك أو الياسمين.

ولأنني كنت مضطرًا لرفض السجائر، فقد أتيحت لي لمسة من الرائحة في جميع المناسبات بدلًا من ذلك.

وجدنا بصعوبة عربة صديقنا المسلم الذي أحضرنا من القاهرة. عندما ابتعدنا عن مشهد ليلة عربية أخرى حقيقية، تساءلتُ مرة أخرى: كيف تمت هذه الليل بهذا الشكل البديع الكامل. لكنني أدركت مرة أخرى أنه في هذا، كما هو الحال في العديد من الأمور الأخرى، غالبًا ما يحكم الغرب بغباء، ويقفز إلى استنتاجات مضللة تمامًا. نحن نعتقد بسهولة أن الناس الشرقيين مخطئون في النقطة التي يختلفون فيها عنا. أعلم أنه من الصحيِّ في التعامل معهم أن يتجاهلوا الانزعاج، لأنفسهم، ولكم على حد سواء، بقولهم: (معلش) الأبدي؛ والتي تعني: (لا تفكروا في ذلك)، وهم غير ملتزمين بالمواعيد، ويتراخون في الموعد المحدد مسبقًا. لكن بالرغم من كل ذلك، فإن الشرقي، على الرغم من أنه يختار ساعات أخرى غير الأوروبية لجهوده، غالبًا ما يعمل بجد. إذا أردنا أن نفهمهم في أي وقت، يجب أن نتذكر، كمبدأ أول، أنهم يتعاملون مع كل سؤال في الحياة بطريقة معاكسة تمامًا لأنفسنا؛ وهذا في حد ذاته سوف يقضي على كل محاولة لإصدار حكم غربي سريع عليهم. كنت أتمنى أن تكون هناك رغبة عامة في دراسة الأشخاص الذين يعتمدون على فهمنا لهم، وما يترتب على ذلك من ممارسة للعدالة، وهو اتجاه أبطأ وأكثر شدة مما يمكن القول إنه موجود في الوقت الحاضر.





الباب الرابع

القضايا الكبرى في الإسلام

1) الفصل الأول: (الإله) في مفهوم المسلمين.
2) الفصل الثاني: ما هي نظرة المسلمين في المعصية والصلاة؟
3) الفصل الثالث: استقراء في التعصب الديني.
4) الفصل الرابع: المساواة والأخوة الإنسانية.
5) الفصل الخامس: طريق جديد مع المسلمين.

الفصل الأول
(الإله) في فَهم المسلمين

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾.

القرءان الكريم، سورة الفاتحة

من الأمر المثير للاندهاش أن نلاحظ السهولة التي سيحدد بها نُقَّادُ الإسلامِ المعارضين للعالم الغربي المفهوم الإسلامي عن الله، مع إشارة قليلة أو معدومة إلى حياة الناس أنفسهم، الذين يعبدون الله بتقوى وورع، مثل هؤلاء الكُتَّاب التبشيريين كما ذكرت سابقًا (السيد صموئيل مارينوس زويمر Samuel Marinus Zweme والقس ويليام سانت كلاير تيسدال the Rev. W. St. Clair Tisdall، على وجه الخصوص)، يُعِدُّون لوائح اتهام المسلمين بكل شيء فيه ضرر، وهم لا يعلمون عنهم شيئًا، وإذا وجدوا كلمة مواتية في النقد الغربي فسوف يعارضونها على الفور بعبارة (تصحيحية). يفعل السيد زويمر هذا في الواقع في الإسلام: الطعن في الإيمان. إذا كانت كلمات القرءان أو الصحابة تتعارض مع تأكيداتهم، فإنهم سوف يلجئون إلى بعض الأعراف الإسلامية غير الجيدة لشرح هذا التناقض، أو سيؤكدون بجرأة أنه غير قويم! حتى أن هؤلاء النُقَّاد سيجعلونها اتهام من أن العقيدة الإسلامية قائمة على الدعوة إلى عبادة الإله الواحد، كما قال القرءان: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [1]، وأنه يجب إدانة هذه العقيدة لأنها، من بين

---

(1) سورة الإخلاص.

(أسماء الله الحسنى)، التي يتلوها المسلم، (لا يتم ذكر اسم الأب). هل يمكن لروح الانحراف أن تتجاوز هذا؟

ليس من المستغرب أنه عندما نتوصل إلى أقوال مثل هذه عن الإسلام، نجد أنفسنا في مواجهة خيال قاسٍ، وهو ما يتعارض مع أي معرفة حقيقية بالأشخاص الذين كُتب عنهم في الحال (كما حدث في حالتي) من القداسة اللامتناهية والحب اللامتناهي. لم يكن لدى محمد صلى الله عليه وآله وسلم أي فكرة على الإطلاق، وإذا قلنا بقول الكُتَّاب الغربيين، فسنصل إلى أن (الله) غير مُقَدَّس بشكل كامل، بل إنه طاغية شرقي متعسف، يجعل أعداءه يختبرون غضبه بطريقة مروعة، ويحمل عبيده المخلصين بالمنافع بينما يغمز في آثامهم.

ويُطلب من الناس في الغرب أن يستمروا في الإيمان، كما كانوا يعتقدون دائمًا، (لأنهم سيفعلون)، أن إلهًا مثل هذا هو الذي يلهم العشق العاطفي لمئات الملايين من البشر، والذي يُعبد خمس مرات في اليوم مع إخلاص شديد في عبادته وتمجيده وتسبيحه، والذي لمَّا يعرف العالم المسيحي سره.

إنه لأمر مفيد أن نلجأ ببساطة إلى أسماء الله الحسنى هذه، التي يجب المسلم أن يُرَكِّزَ عليها. سأقدم بعضًا مما يبدو أنه قد حُجِبَ عن القراء الغربيين:

الرحمن ... الرحيم ... القدوس ... السلام ... الغفور ... الغفَّار ... الكريم ... المُجيب

الودود ... البَرُّ ... التوَّاب ... العفو ... الرؤوف ... النور ... الهادي ... البديع

الرشيد ... الصبور.

ففي الحديث النبوي: «قُمْ عَنَّا فَلَسْتَ مِنَّا فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ عَلَيْهِ كِسَاءٌ وَفِي يَدِهِ شَيْءٌ قَدِ الْتَفَّ عَلَيْهِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُكَ أَقْبَلْتُ إِلَيْكَ فَمَرَرْتُ بِغَيْضَةِ شَجَرٍ فَسَمِعْتُ فِيهَا أَصْوَاتَ فِرَاخِ طَائِرٍ فَأَخَذْتُهُنَّ فَوَضَعْتُهُنَّ فِي كِسَائِي فَجَاءَتْ أُمُّهُنَّ فَاسْتَدَارَتْ عَلَى

رَأْسِي فَكَشَفْتُ لَهَا عَنْهُنَّ فَوَقَعَتْ عَلَيْهِنَّ مَعَهُنَّ فَلَفَفْتُهُنَّ بِكِسَائِي فَهُنَّ أُولَاءِ مَعِي قَالَ ضَعْهُنَّ عَنْكَ فَوَضَعْتُهُنَّ وَأَبَتْ أُمُّهُنَّ إِلَّا لُزُومَهُنَّ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لأَصْحَابِهِ أَتَعْجَبُونَ لِرُحْمِ أُمِّ الْأَفْرَاخِ فِرَاخَهَا قَالُوا نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ فَوَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ أُمِّ الْأَفْرَاخِ بِفِرَاخِهَا ارْجِعْ بِهِنَّ حَتَّى تَضَعَهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُنَّ وَأُمُّهُنَّ مَعَهُنَّ فَرَجَعَ بِهِنَّ» [1].

حقًا؛ يوجد في هذا المفهوم عن الله (اللطف والمحبة: المفهوم الذي يتعلق بالقوة العظيمة). تقريبًا كل سورة من القرءان وردت باسم الله الرحمن الرحيم، مثل قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴿٥﴾﴾ [2]، وقوله أيضًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴿٢٨٦﴾﴾ [3].

ولكن، كما يقول الناقد المعاصر في السياق المعتاد، فإن المفهوم الإسلامي عن (الله) لا يقترب أبدًا من مفهوم (الأب) الذي يرحم الجميع. بل هي بالأحرى (رحمة) مستبد، لا يدخر القليل من الدمار الشامل، لدوافع ليست أكثر وضوحًا من تلك التي نجت (كاليبان) [4] من أجلها بعض السرطانات البرية في قصيدة براوننغ الشهيرة (The Reproach of Islam).

---

(١) سنن أبي داود – كتاب الجنائز – باب الأمراض المكفرة للذنوب – حديث رقم ٣٠٩١، والحديث من طريق عامر الرامي المحاربي.

(٢) سورة الشورى: ٥

(٣) سورة البقرة: ٢٨٦

(٤) كاليبان: شخصية من شخصيات في مسرحية شكسبير (العاصفة).

في المحادثات العديدة التي أجريتها مع كبار مشايخ الإسلام حول هذا الموضوع، وكذلك مع المصريين البسطاء الذين يحبون دينهم بشكل لا يقل عن ذلك؛ لأنهم لم يتلقوا تعليمًا دينيًّا كما كان لدى الشيوخ في كل أحوالهم، وجدتُ دائمًا أن كل هذه العقائد أقوال لأن هذه فعلتْ لهم أقل بكثير من العدالة. في كل حالة، فإن مفهوم (الله)، كما عَبَّرَ عنه المسلمون أنفسهم، يكون أحيانًا أكبر بلا حدود مما تُوحي به أي استنتاجات ضيقة من هذا القبيل.

أفكرُ في الشيخ الطيب: يوسف – من الأقصر – الذي جعله بعض المسيحيين بائسًا جدًّا عندما أخبروه عن العقيدة القائلة بأن جميع الأطفال الذين ماتوا غير المُعَمَّدين مصيرهم إلى النار الأبدية؛ ولأنه كان يعلم أن السيدة لوسي داف غوردون فقدتْ طفلًا صغيرًا فقد جَالَ في ذهنه أنها ربما تكون قلقة بشأن هذا الأمر؛ ولذا قال:

(إنه لا يستطيع الامتناع عن محاولة إقناعها بالتدخل الوحيد في آرائها الدينية التي تقول إن الله لم يكن قاسيًّا وظالمًا، مثله مثل الكهنة الناصريين، وأن جميع الأطفال على الإطلاق، وكذلك جميع الجهلة، ليسوا من أهل النار).

ثم قال:

(هل يمكنني تصحيح هذه العقيدة الفادحة من أذهان مئات وآلاف من الأمهات المسيحيات الفقيرات اللواتي يُعَذِّبهن بسببه، وأدعهن يفهمن أن أطفالهن المتوفين هم مع الذي أرسل ومن أخذهم، وهو الله؟).

وفي آية قرءانية، قال الله: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ

زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾﴾ (١).

يؤكد القرءان باستمرار أن الإسلام هو دين إبراهيم عليه السلام. ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ (٢). هذه (الكلمة) التي أعلنها إبراهيم (وفقًا للكتاب اليهودي Haggadah)، أولًا، وقبل كل شيء، وجود إله واحد، خالق الكون، يحكم هذا الكون برحمة ولطف محب. هو وحده الذي المُتَحَكِّمُ في مصائر الإنسان. عبادة الأصنام، حتى عندما تقترن بالإيمان به، هي أمر مكروه تمامًا. فعبادة الله وحده تُوضع الثقة والإيمان في الشدائد، فيتحرر المظلومين والمضطهدين. لذلك؛ يجب أن تصلي كما أمر الله، وتطيعه بمحبة، ولا تتذمر عندما يفرض عليك ضوابط تضبط أمر حياتك، أو حتى حياة لا تزال أعز عليك من حياتك. أما الواجبات تجاه الإنسان، فإن (اللطف والرحمة) هما من سمات عقيدة إبراهيم عليه السلام: الرحمة والمحبة، يجب أن تشمل كل كائن على وجه الأرض، دون الإشارة إلى الثياب، أو النشأة، أو المرتبة، أو العقيدة، أو الجنس، أو الموطن.

لا يحكم الله كما يعتقد الناس، على الشكل الخارجي، بل ينظر إلى القلب، وينظر إلى دوافع الإنسان وباطنه، ومن ثم؛ فإن الأشكال والطقوس قليلة الأهمية؛ حتى الكلمات التي يعبر بها الإنسان عن إخلاصه هي غير جوهرية طالما أن العبد استوحاها من محبة الله. لا ينجو الإنسان (بتعيين الأسماء الإلهية) بدقة أرثوذكسية، أو بالعبادة (شكلية ظاهرية جوفاء)، بل بالحب الصادق والسعي الجاد لإرضاء الله. أولئك الذين يعبدونه بالروح، يطلبهم الآب، بغض النظر عن المكان الذي قد يكونوا قد نطقوا فيه بصلواتهم. يقول جلال الدين الرومي:

---

(١) سورة النور: ٣٥

(٢) سورة النحل: ١٢٣

(أيها القلب! لماذا أنت أسير الهيكل الترابي الزائل؟).

وقال أيضًا عن الحج:

(أيها الذاهبون إلى الحج أين أنتم؟ المعشوق هاهنا ... ارجعوا).

عند هذه النقطة يجب على الناقد المسيحي أن يعترف بأن إله القرءان هو بالضبط يهوه (Jehovah) في العهد القديم، ملك الملوك، الساكن في أعالي الجنة، إله الخير، وإله القسوة، وإله الرحمة، وإله الانتقام، الذي يحكم العالم بقوة لا يتصورها أحد، ولكن يمكنه أن يلهم قلب الشاعر بأرق شوق إليه، لذلك تتوق روحي بعدك، يا الله. وهنا يمكن لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لليهود الذين أرسلت إليهم أول كلمة أُوحِيتْ إليه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [١].

عندما وصل المبشر العظيم، هنري مارتن، إلى شيراز عام ١٨١١، وجد مسلمي الطريقة الصوفية هناك متحمسين للاستماع إلى رسالته، فكتب في مذكراته:

(هؤلاء الصوفيون هم ميثودية الشرق تمامًا. إنهم يسعدون بكل شيء مسيحي، لكن بحدود معينة. إنهم يعتبرون أن الجميع سيعود في نهاية المطاف إلى الله الذي خلقهم).

من وجهة نظر أَلْفْرد فن كْرِيمَر Alfred von Kremer، فإن التصوف في الإسلام والمسيحية لهما أرضية مشتركة في كثير من الأمور، وربما من خلال التصوف، ربما يُبْنَى أولًا جسر الهوة الواسعة التي تفصل بين الإسلام والمسيحية، وبالتالي؛ يستمتع الناس جميعًا بالحضارة الحديثة.

---

(١) سورة العنكبوت: ٤٦

سوف أنهي هذا الفصل الخاص بمفهوم الإسلام عن الله بواحدة من أحب أدعية النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَهْلِي وَمِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ» (١).



(١) سنن الترمذي – كتاب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – حديث رقم ٣٨٢٨، والحديث من طريق عويمر بن زيد أبو الدرداء الأنصاري. قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

الفصل الثاني

ما هي نظرة المسلمين للمعصية والصلاة؟

«تحتوي شريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم على قدر كبير من المسيحية النقية. إنه يفرض فضائل المحبة، والاعتدال، والعدالة، والإخلاص بأقوى طريقة، ويحظر الابتزاز، وجميع أنواع القسوة، حتى على المتجبرين؛ وهي تُلْزِمُ أتباعها بالانتظام، والحفاظ على النظام، والإخلاص».

د. زوش Dr Zouch

أتصورُ أنه لا يوجد رجل شاهد المسلم في صلاته أنه خَفِقَ في استحضار الخشوع أمام الله، والذي يكاد يكون غائبًا تمامًا في عبادة الغرب أمام إلههم. بالنسبة لي؛ لا يمكنني نسيان صلاة المسلمين أبدًا التي رأيتُها، ورأيتُ كيف أن المسلمين يقيمون صلاتهم بتفانٍ وإخلاص، سواء في المساجد المختلفة أو في الصحراء.

لقد شاهدتُ بأم عيني آلاف الرجال يجتمعون في مجموعات صغيرة، اثنان أو ثلاثة أو أكثر في صحبة، يخرجون من منازلهم إلى المسجد وهم في حالة روحية مع الله، ويتلون بعض آيات القرءان أثناء ذهابهم إلى المسجد، وإيابهم منه.

ومهما اختلفت وجهات نظر الرحَّالة وغيرهم، فإن تقوى المصلين المسلمين في الصلاة تظل هي هي، من بلاد المغرب إلى مكة، ومن القسطنطينية إلى كالكوتا الهندية. علاوة على أن بساطة بناء المسجد، وغياب البهرجة في تزيينه، تخلق انسجامًا روحيًّا عجيبًا بين المصلين.

(الله أكبر الله أكبر!) ... (لك الحمد ولك الشكر!)

(باسم العظيم يا الله!) ... (لا إله إلا أنت سبحانك!)

(سبحان ربي العظيم!) ... (سبحان ربي العظيم!)

(سبحان ربي الأعلى!) ... (سبحان ربي الأعلى!)

(سمع الله لمن حمده!) ... (الحمد لله ملء السماوات وملء الأرض!)

(الله أكبر!) ... (الله أكبر!) (رب اغفر لي، وارحمني، واهدني السبيل الأقوم!)

هذه هي الكلمات المصاحبة لحركات المصلين المسلمين في الصلاة.

وبعد ذلك، عندما تنتهي منها، وينتهي المصلون من التسبيح، يحل صمت شديد على هؤلاء الرجال، وهم يرفعون أيديهم إلى صدورهم في الخضوع لله: الدعاء السري لقلوبهم؛ تمد الأيدي كعلامة أكيدة على الإيمان بأن الله سوف يعطي ما يطلبونه، ثم مسح الوجه باليدين عند الانتهاء حتى تمتص البركة الإلهية.

وكانت صلوات الخلفاء الأوائل بنفس الروح التعبدية. تقنعني دراستي لهذا الموضوع، من جميع الأدبيات بما في ذلك القرءان الكريم، ومن حياة الأحياء وممارساتهم، أنه إلى جانب وعي الكرامة الإنسانية، التي كانت تحظى بتقدير كبير في الفلسفات القديمة، يخلق الإسلام أيضًا بطريقة حقيقية جدًّا، هذا الشعور بالذنب البشري الذي شجعه دائمًا الإنجيلي المسيحي.



دعاء أمام ضريح بمسجد السلطان برقوق – القاهرة

هذا هو ما يحير المُحَلِّل الغربي، ويقود بعض الرجال إلى التفكير، كما يفعل مؤلف رواية (جنة الله: The Garden Of God)، أن الاعتزاز الشخصي، مثل الدم في الجسد، يسري في جميع عروق عقل المسلمين.

حقًّا؛ لقد كانت الصلاة دائمًا هي ما يشغل تفكيرهم، سواء في وقت الخطر أو وقت الانتصار. هل يمكن أن ينسوا كيف أن جند نبيهم، بعد أن صلوا في تلك الليلة العظيمة قبل غزوة بدر، شعروا براحة البال، فقال الله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴿١١﴾﴾ [1]، بينما ظل أعداؤهم مستيقظين طوال الليل بسبب الخوف. أو هل ينسون أنه عندما كان العدو في غزوة أُحُد على مرمى البصر، استمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صلاة الصبح كعادته.

ولما تلقى عمر بن الخطاب رضي الله عنه نبأ فتح مصر، رجع على الفور إلى المسجد وأَمَّ المسلمين في الصلاة. يجب أن يكون المكان الذي نصب فيه عمرو بن العاص رضي الله عنه رايته، أو خيمته، خارج القاهرة القديمة، هو مكان الصلاة، حتى يُحَوَّل إلى مسجد في الأيام الأولى من الانتصار؛ لأن المسجد كان ضرورة أولية لهم. يقف مسجد عمرو بن العاص رضي الله عنه، أقدم مسجد في مصر، هناك حتى يومنا هذا للإشارة إلى المكان. هذه ليست أعمال الشكليات.

فإذا أراد أي قارئ أوروبي إلى أي مدى يمكن أن يذهب نقد الكاتب الغربي في وضع التفسير الأكثر سلبية على أفعال أتباع الدين الذين لا يعتنقه، ويشوه صورتهم دون علم، فسأوجهه إلى الفصل الخاص بـ (الشعائر في الإسلام): الطعن في الإيمان، بقلم صموئيل م.

---

(١) سورة الأنفال: ١١

زويمر. فنجد أن المؤلف يحتقر الوضوء، ويذهب إلى كل الكتابات المبكرة السخيفة حول هذا الموضوع، والتي بالغ فيها المثقفون اللاهوتيون في تفاصيلها، وتجاهل كل تلك التعاليم الروحية التي تنص بوضوح على أن الغسل كان للقلب. فيزعم قائلًا:

(عمليًّا، إن النقاء الأخلاقي غير مُشار إليه أبدًا مثل الاستعداد من أجل الصلاة، ولا القرءان يشير إليه البتة).

دعونا نتجنب النصوص المنفصلة التي تؤكد أن روح القرءان هي أن التقوى هي مخافة الله. أما بالنسبة للطهارة الأخلاقية، فقد سمعتُ كثيرًا عن تعليم المشايخ في موضوع الوضوء لتلاميذهم في الأزهر، وفي طنطا، وفي مختلف المدارس الحديثة في مصر، ودائمًا كان الموضوع هو النظافة جيدة، للصحة، وللراحة واللياقة:

(إن ممارسة الدين تقوم على النظافة)

يذكرهم الشيخ بما قاله الرسول، ولذا كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم نفسه دائمًا نظيفًا تمامًا. وتابع الشيخ:

(من الصواب والمناسب أن تكون أمام الله طاهرًا قدر المستطاع. أما في طريقة التطهير فنحن نقتدي بسيدنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم)

وهنا الشيخ من شأنه أن يعطي تفسيرات دقيقة:

(لكن كل هذا التطهير ما هو إلا علامة. لا تُغسل خطايا بالماء. كل هذه الاستعدادات يجب أن تقودك إلى الاقتراب من الله بقلب طاهر).

وبنفس الطريقة أعتقد بالتأكيد أن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يجهل قيمة السجود في الصلاة كتمارين بدنية، حتى لمساعدة وظائف الجهاز الهضمي؛ لذلك كان يعلم أيضًا مدى أهمية

الوضوء للصحة لكل العالم الإسلامي. لم يكن الفكر العظيم الأول هو التطهير الجسدي، بل الإعداد الروحي لعبادة الخالق.

لقد صاغ الإمام المُتكَلِّم الغزَّالي ﵁ موضوع الوضوء كله على هذا النحو:

أولها: تطهير الجسد من كل تلوث وقاذورات وفضلات، وثانيها: تطهير أعضاء الجسد من كل ظلم وشر، وثالثها: تطهير القلب من كل أمراضه ورذائله، ورابعها: تطهير تفكير الإنسان من كل ما يشتت انتباه المسلم أثناء وقوفه أمام الله في الصلاة. ووصف الغزَّاليُ الجسد الخارجي للإنسان بأنه كالصدفة الخارجية للقلب.

لذلك؛ لم يفهم الكُتَّاب والمُبشرون الغربيون هذا كله، بل تكلموا فيه عبادة المسلمين بجهلهم الأحمق، بل ونشروا كتاباتهم في أوروبا باعتبار أنها هي مصدر الثقافة الوحيد للشعوب الأوروبية. فما كل هذا الجهل والغرور الذي حلَّ بهم!

يؤكد أحد المؤرخين العرب، أبو الفداء إسماعيل بن علي الأيوبي، أن غسل الأسنان في المناسبات الدينية والتنظيف الديني للأسنان كان يمارسه العرب قبل عهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم. إذا تحقق ذلك، أقترحُ أن يسحب الكُتَّاب الغربيون ما يُلقوه جزافًا على المسلمين، وأن يتراجعوا عن هذه الألاعيب الصبيانية، وعما زعموه في حقهم، لأنهم بذلك يحاولون بما أوتوا من جهل لإثبات أن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من (أيام الجهل)، وأنه استبعد وطرد كل خير في الإسلام.

على أي حال؛ فمن الغريب أن يرى أميركيٌّ، على وجه الخصوص، العبثية في العناية بالأسنان، في حين أن أمريكا هي التي قادت الطريق إلى طب الأسنان العلمي. قد يُنظر إلى هذا التعليم بأنه أمر رائع وجدير بالاهتمام، وقد أصر عليه في فترة كان من المحتمل أن يكون شيئًا مثل فرشاة الأسنان غير معروف في بريطانيا.

يستخدم المسلمون المسواك، وهو نوع من فرشاة الأسنان المصنوعة من الخشب الليفي.

وبالطبع لن يستخدموا، أي فرشاة مصنوعة من شعيرات الخنازير؛ لأن ذلك بالنسبة لهم من الممنوعات التي ذكرها القرءان، وأن القرءان الكريم هو الاستيراد الروحي للعبادة، وتجب الكفارة إذا فعلوا ما يخالف ذلك. فقد تتحدث كلماته الواضحة عن نفسها:

قال الله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ (١)

وقال: ﴿۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ (٢)

وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ (٣)

وقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ (٤)

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ

---

(١) سورة الحج: ٣٧

(٢) سورة البقرة: ١٧٧

(٣) سورة البقرة: ١١٥

(٤) سورة البقرة: ١٨٩

جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴿١٣٦﴾﴾ [1]

وهكذا مرارًا وتكرارا؛ يجب على المؤمن الصادق أن يلجأ إلى الله بالتوبة والعزم على إصلاح حياته. يجب أن ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴿٨٢﴾﴾ [2] الكلمات الأولى التي ينطق بها بصوت منخفض قبل أن تبدأ الصلاة الفعلية هي:

(نويتُ أن أصلي صلاة كذا بقلب صادق)

هذه الصلوات.

وقد تجاوزتُ – عن سابق تصور وعمد – كل ما سجَّله الصوفية في هذه القضية، وفضَّلتُ النظر إلى الإسلام في عصره الأول.

قد نحزن أن شعبًا جيدًا وعظيمًا ليس له نصيب في تكفير الذنوب والمعاصي (مَنْ مِنَ الشعوب المسيحية لا يحزن على هذا؟)، ونتوق لنراهم يتعزون ويلين بسبب هذه النسخة النبيلة من محبة الله، التي انتهتْ. هذا كل الفَهم عنهم في هذه القضية، ولكن إذا أردنا أن نكون في وضع يمكننا من مساعدة المسلمين، يجب أن نكون عادلين، حتى عندما يبدو أن العدالة تعيق استئنافنا الفوري؛ وفوق كل شيء، يجب أن نصبر صبرًا جميلًا ونُنْكِر ذواتنا.



---

(١) سورة آل عمران: ١٣٥، ١٣٦

(٢) سورة البقرة: ٨٢

الفصل الثالث
استقراء في التعصب الديني

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

القرءان الكريم، سورة البقرة، آية: ٦٢

ليس هناك ما هو أكثر إلحاحًا من الظلم من الطريقة التي يُعتبر فيها الدين الإسلامي عمومًا مرادفًا للتعصب. هذا هو الحال لدرجة أنه سيتبين أن كل كاتب أوروبي عن الإسلام تقريبًا يجلب للموضوع فكرة مسبقة تجعل ملاحظاته غالبًا دون وعي تتفق معها!

هذا الإصرار هو الأكثر غرابة من تأييد ضعيف للغاية الذي تحصل عليه التهمة من المؤرخين المحايدين، الذين تظهر قصتهم دائمًا أنه منذ الأيام الأولى أظهر الإسلام تسامحًا لم يحصلوا من أجله على تقدير كافٍ؛ في حين أن أي كاتب عاش حقًّا بشكل وثيق بين الناس، سرعان ما وجد أن الفكرة الغربية الشعبية، مثل: العديد من هذه الأحكام العائمة حول الأجانب في كل جزء من العالم، كانت مضللة تمامًا.

وأعلن إدوارد ويليام لين أن المصريين في القاهرة جمعوا بين التسامح والاعتزاز الذي يحمل فيه شيئًا من الازدراء الصامت تجاه الديانات الأخرى. هذا الاعتزاز هو الذي يضلل في كثير من الأحيان. هناك نوع من البراءة في الاعتقاد الإسلامي بأن دينه هو الأفضل، وهو نوع من الغرور العقائدي الذي، ومع ذلك، فإنه خالٍ تمامًا من كل عنف.

وأعلن أتباع المسيح أن أحد أصدقاء سيدة مسيحية، من المسلمين، من القضاة، قد تلقوا تعليمهم الديني وقال لها:

(تعلمنا أنكم ليسوا من المنبوذين، وإنما أجركم على الله)

بل إن الشيخ عرض عليها أن يقرأ معها القرءان الكريم، وهو أمر غير معتاد، لكن ليس بأي حال من الأحوال ممنوعًا، كما أعلم من تجاربي مع المسلمين.

ووُضِعَتْ قواعد صرامة ضد الإجابة على أسئلة حول مثل هذه الأمور بشأن أولئك الذين ليس لديهم معرفة دينية كافية. لقد جلست في غرفة رئيس المشايخ الخاصة في الجامع الأزهر، كما وصفت، واستمعت إلى محاضرة للطلاب المتقدمين خاصة الإصرار على هذه القضية. يجب ألا يجيب الرجل المُتعلِّم تعليمًا مدنيًّا على مثل هذه الأسئلة العقائدية، مهما كان حكمه.

في مصر، منذ مائة وخمسين عامًا، قال شيخ مسلم، وكان يراقب الحياة التعبدية لواحد من المُبشرين من الكنيسة المورافية، يُدعَى جون هنري دانك John Henry Danke: (مسيحيون مثلك سيدخلون إلى الجنة بالتأكيد).

ليست هناك حاجة لتجاهل الحقائق التي يبدو أنها تثبت شيئًا مخالفًا تمامًا لذلك، وهذه (الردة) يُعاقب عليها بالإعدام وفقًا لنص قرءاني، وأن مثل هذا الحكم نُفذ مؤخرًا في عام ١٨٤٣ بقرار من محكمة عثمانية، وأن اللورد كرومر كان عليه أن يتدخل مرة أو مرتين للحماية من سوء معاملة المسلمين الذين انحرفوا عن عقيدتهم الصافية النقية كما كانت في عصور الإسلام الزاهية.



شارع من شوارع القاهرة في وقت الظهيرة

الحقيقة في كلام هذا الشيخ العالِم أن البرابرة متعصبون في كل مكان! لقد مرتْ المسيحية بعض الأيام المظلمة جدًّا في هذا الصدد، على الرغم من أن عملها الكامل لَمَّا يُنجز حتى في مسألة التسامح والحرية. هناك أخوات مسيحيات في أوروبا، سمعت عنهن، لا تسمح لهن قواعد المستشفى الخاصة بهن بتمريض البروتستانت، والبروسيين (شعب دولة بروسيا) الذين يجب عليهم رفض الصدقة لغير اللوثريين. في عام ١٩٠٨ أثار البروتستانت ثورة عارمة غاضبة كبيرة في لندن، في حضور الملك الراحل إدوارد في حفل تأبين لصديقه الملك كارلوس – ملك البرتغال – في كنيسة رومانية كاثوليكية.

من المؤكد أن التسامح ينمو ببطيء في أي مكان، في الوقت الذي كان فيه ذلك (التحريض التعصبي) كما يسميه العالَمَ الإسلامي، لُوحِظَ أيضًا أنه موجود في لندن. كان الإنجليزيُّ يقوم برحلة عبر الصحراء من الجزائر إلى طرابلس، كان خلالها هو، بالضرورة، كان يتعامل بأخوية مع السنوسيين المسلمين، الذين سمع الكثير عنهم مؤخرًا فيما يتعلق بالهجوم الإيطالي. يشير اسم الشيخ السنوسي ذاته في الغرب إلى التطرف.

كان السيد إتش. ويكسر H. Vixer مُبَشِّرًا مسيحيًّا سابقًا، وهو الآن مسئول في شمال نيجيريا، حيث سافر بصفته هناك، ولم يحاول إخفاء جنسيته أو دينه. وما المعاملة التي لقاها من رجال هذه الأخوة؟ دفع الرجال بألمٍ إلى الصحراء ليعيشوا حياة دينية قاسية بعيدًا عن الأعداء الذين يكرهونهم، ليس بسبب إيمانهم المسيحي، كما يظهر الآن، ولكن بسبب الإساءات والقمع الذي يمارسه حكمهم. لقد كان الشيخ السنوسي حتى الآن من معارضته بالكراهية المتعصبة التي من المفترض عالميًّا أن يستمتع بها الأوروبيون، حتى أنهم اقتادوه إلى بيوتهم الدينية وقدموا له المساعدة والحماية؛ وعلم بعد ذلك، أنه عندما طلب بعض اللصوص الذين تبعوا قافلته

الدخول في أحد بيوت الأخوة، تم طردهم، فإن عملهم في التفكير في هجوم على الغرباء كان بغيضًا للطريقة السنوسية الصوفية.

إن الانخراط في التاريخ هو بمنزلة العثور على سلسلة متتالية من القصص متناقضة تناقضًا غريبًا مع المعتقدات الشعبية مثل هذا. عندما سار النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه إلى مكة، وتَوَّجَ عمل حياته باسترداد مكة التي احتقرته وطردته خارجها، يا له من عودة طيبة من غير دم!

في زمن قوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، كانت أفكاره غنية بما تتعلق بمصر، التي تنبأ بها أنها ستقع تحت حُكم أتباعه من المسلمين. ربما بالنظر إلى ذلك التلميذ القوي، عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد أمر بمراعاة الأقباط المسيحيين هناك.

وكيف تبنى عمر بن الخطاب – بكل النُّبْلِ والحكمة – هذه المبادئ التي بدت له مثل هذا الابتكار. حتى في خروج اليهود والمسيحيين من شبه الجزيرة العربية، فيما اعتقدَ هو، أنه رغبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، اتسم تعامل عمر معهم بالكثير من الرحمة والإنصاف، لدرجة أن حتى المعارضين يعترفون أنه لا يوجد شك في أن أفعاله في شبه الجزيرة العربية كما لو كانت وحيًّا سماويًّا، بدوافع السياسة السليمة (محمد وسلطته صفحة ١٧٦) [1]. غالبًا ما يُستشهد بحقيقة أن الجزيرة العربية كانت مغلقة أمام غير المسلمين كدليل على تعصب الشعوب العربية، ومع ذلك، كان هذا الكاتب المسيحي عادلًا بما يكفي ليقول:

(كانت الجزيرة العربية معقلًا وأرضًا لتجنيد جيوش الإسلام، وكان التعامل مع الغيرة القبلية صعبًا بدرجة كافية، وشعر عمر بن الخطاب أنه لا غنى عن رباط الدين يجب أن يكون غير منقطع).

---

(١) النسخة الإنجليزية الأصلية بعنوان: (Muhammad and His Power) تأليف: بيرس دي لاسي هنري جونستون (Peirce De Lacy Henry Johnstone).

من المؤكد أن تقدم الحضارة سيزيل القيود التي بقيت لفترة طويلة بعد زوال الأسباب المشروعة. في الواقع؛ لقد وعدني أصدقائي المسلمين بالحصانة من المعارضة إذا كنت سأرافق كمسيحي، بالطبع، قافلة حج إلى مكة. لكن هذا سابق لأوانه. في غضون ذلك، يتقدم خط السكة الحديد إلى المدينة المقدسة.

كانت قصة الكنيسة المسيحية في مصر، في فترة الفتح، مؤسفة من كل النواحي، ولا شيء سوى الغياب الكامل لأي تصور لمبادئ التسامح في ظل الفرس الذين يعبدون النار. كان أول ملوك الفرس الأخمينية: كورش، كبير أساقفة الإسكندرية (الذي عينه الإمبراطور هرقل)، هو الذي عقد العزم على انتزاع حرية ممارسة شعائر المسيحيين منهم. وباضطهاد دموي، فرض عليهم مذهب خلقيدونية بالجلد أو الموت كبديل. وقد مُورستْ مثل هذه الأعمال الوحشية الثائرة لفرض عقيدة مسيحية على الناس بدلًا من عقيدة أخرى. فلا عجب أن نجد الأقباط يعلنون أن الخضوع للمسلمين سيحسن مصيرهم، وأن نير محمد صلى الله عليه وآله وسلم سيكون أخف من نير الإمبراطور المسيحي هرقل.

وهذا الترحيب الذي استقبل به المسيحيون الحكمَ الإسلاميَّ، كخلاص للعناية الإلهية من طغيان إخوانهم المسيحيين، لا يقف وحده بأي حال من الأحوال. وفي سوريا؛ شكر المسيحيون الله على أنه خلصهم من أيدي الرومان على يد العرب.

وبعد فترة وجيزة من تمجيد الصليب في القدس، خرجت الجماعة المسيحية لإبعاد أو قتل اليهود الذين فروا إلى الصحراء خارج الأردن. وعندما رأوا رايات الإسلام قادمة، كان لديهم سبب للفرح لاقتراب أعداء الإمبراطورية الرومانية.

والقصة الكاملة لدخول عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى القدس، وهي مدينة مقدسة تقريبًا كما هي الآن للمسلمين والمسيحيين واليهود، على الرغم من كل افتراءات الباباوات الصليبيين

على عكس ذلك، لا تظهر فقط روح التسامح الواسع، ولكن حتى من كياسة التعامل مع المسيحيين هناك. ببساطة رائعة في السلوك الشخصي، لا تساويها سوى الافتقار إلى العرض الاحتفالي، سار عمر ﵁ عبر المدينة المقدسة جنبًا إلى جنب مع البطريرك المسيحي، ووضع حجر الأساس للمسجد، الذي يحمل اسمه حتى يومنا هذا، ثم غادر القدس.

في الواقع، ظهر مبدأ التسامح نفسه في كل أيام الإسلام الحسنة. أصبح هناك مقولة إسلامية مفادها أن:

(التعلم الحقيقي للإنسان له أهمية عامة أكثر من أي آراء دينية معينة قد يتبناها).

فالعقل من غير التعلم هو جسد بلا روح، والمجد لا يتألف من الثروة، ولكن في المعرفة.

ومسألة (السيف في الإسلام)، هي سلاح قوي يُستعمل ضد هذا الدين. كان الفتح، بالطبع، بالسيف، كما يجب أن يكون دائمًا، شرقيًّا أو غربيًّا؛ كما هو الحال اليوم عندما نشهد حربًا في طرابلس باركتها الكنيسة على وضع الصليب فوق الهلال. لكن لا داعي للمبالغة في استخدام السيف، ولا يتم التعامل مع عمل عالِمٍ مثل أرنولد TW Arnold، الذي أثبت أن السيف لعب دورًا لا يستهان به في انتشار الإسلام، على أنه ضار لدرجة أنه يحتاج إلى (ترياق). يقول أرنولد:

(ليس من قسوة المضطهد أو غضب المتعصب أن نبحث عن أدلة على الروح التبشيرية للإسلام، أكثر من مآثر ذلك الشخصية الأسطورية، المحارب المسلم والسيف بيد والقرءان باليد الأخرى).

ولكن من أجل التعصب الأصولي البغيض، والدوافع الدنيوية، كما قال صموئيل مارينوس زويمر، ويبدو أن معارضي الإسلام مصممون دائمًا على البحث عن تفسير لذلك

الإلهام الرائع الذي وَحَّدَ عددًا من القبائل المتناثرة في الصحراء وصنع منهم غزاة العالم وحكامه.

يؤكد أرنولد TW Arnold أنه:

(لا توجد آيات في القرءان تحرض بأي شكل من الأشكال على التحول القسري إلى الإسلام، والعديد منها على العكس من ذلك يحد من جهود الدعاية في الوعظ والإقناع).

مقتبسًا مع الموافقة على قول كاتب مسلم بعدم وجود آيات في القرءان تجيز الهجمات غير المبررة على الكفار. استُخدمت كلمة الجهاد قبل كتابة القرءان، وهي في الأساس لا تشير إلى الحرب أو القتال، ناهيك عن محاربة الكفار، ولكنها تُطَبَّقُ وفقًا للسياق القرءاني فقط.

وكما قال لي علماء عظماء في القاهرة:

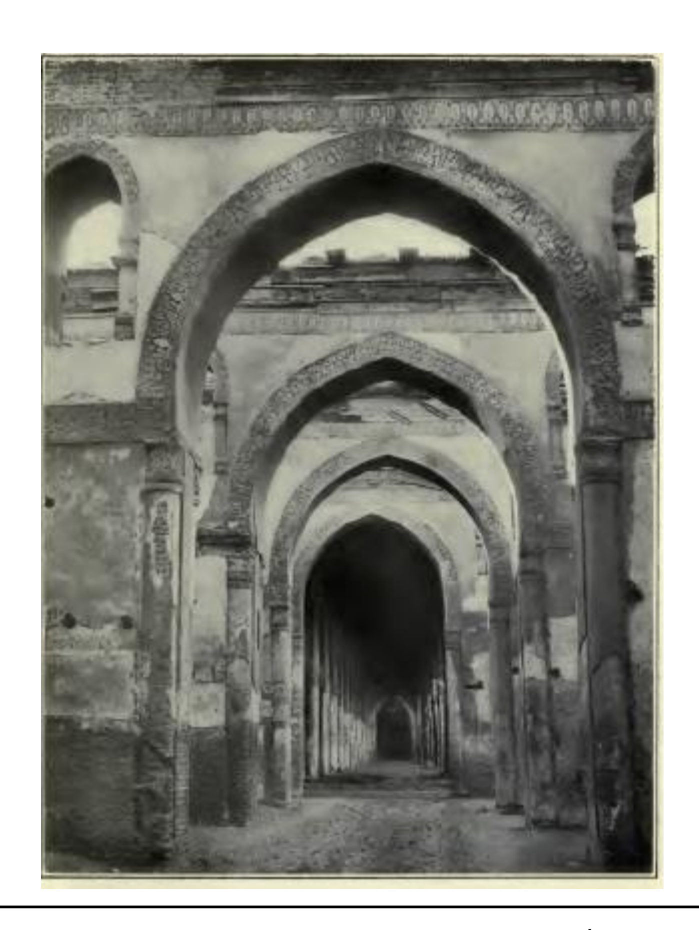
(أليس غريبًا إذا لم نترجم القرءان ليناسب تطور العالم ونموه؟ إذا اقتبستَ كمسيحي نصًّا من القرءان لإظهار أنه لا بُدَّ لي من التعصب المتعطش للدماء، ورفضتَ النظر في التفسيرات التي قدمتها لتعليمات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فبالتأكيد إذا اقتبستَ نصًّا قرآنيًّا آخر يدحضك تمامًا، فإنك ستسكت تمامًا، ولن تستطيع الرد بكلمة واحدة. أؤكد لكم أن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾ [١] يشير فقط وحده إلى المشركين المعاندين الذين رفضوا الاعتراف بالله في شبه الجزيرة العربية؛ لأن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم كان يعتقد، كحاكم ، أن القتل أشد من الفتنة. عندما انتهى هذا

(١) سورة محمد: ٤

الخلاف أُمر الناس بأن ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾ (١)

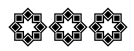
---

(١) سورة البقرة: ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣



الرواق المهيب لأبراج القرن التاسع عشر من بقايا مسجد ابن طولون - القاهرة

قد نسأل أنفسنا نحن المسيحيين ما إذا كان علينا أن نعتقد إلى الأبد أن من واجبنا الأول تثبيط عزيمة رجال هذا الإيمان، الذين يريدون مساعدة ملايين العالَم الإسلامي من خلال إعادتهم إلى تعليم أبسط وأنقى من تعليمهم في عصر الإسلام الأول. عندما يلجئون إلى كتابهم المقدس (القرءان) للمساعدة في استعادة أيام الحماسة الدينية الخالصة، بمبادئها الرفيعة للتسامح، وتشجيعهم على السعي وراء التعلم، فإن الناقد المسيحي هو من يبحث عن نصوص مجتزأة، ويحاول أن يجعل من هذه النصوص المجتزأة من سياقها كعقبات مستعصية وقيود غير قابلة للكسر. إنه لمن دواعي سروري أن أعتقد أنه لا توجد دلائل على أن نجاح مثل هذه الأساليب التبشيرية والاستشراقية في الافتراء على العالَم الإسلامي، إلا أن ذلك جعل رسالة إنجيل المسيح أصبح معروفًا أكثر فأكثر.



الفصل الرابع
المساواة والأخوة الإنسانية

«عَلَّمَ الإسلامُ الناسَ الرصانةَ، والاعتدالَ، والإحسانَ، والعدلَ، والمساواةَ، وجعلها وصايا الله للناس. إن تأكيده على مبدأ المساواة بين الإنسان والإنسان ونزعته إلى الاجتماعية يمثل نفس مرحلة الفكر التي عُبِّرَ عنها على ضفاف الجليل في شمال فلسطين».

سيد؛ أمير علي، **روح الإسلام**

(خذوا ذلك الرجل الأسود**!**)

صرخ المطران المسيحي المقوقس، وقال:

(لا يمكنني التحدث معه**!**)

عندما أرسل الفاتحون العرب للمفاوضة أقوى رجالهم لمناقشة شروط استسلام عاصمة مصر، برئاسة عبد من الزنوج، باعتباره أفضلهم.

ومما أثار دهشة رئيس الأساقفة الخائف، قيل له إن هذا الرجل جاء بتكليف من القائد عمرو بن العاص ﵁، وأن المسلمين يعتبرون الزنوج والبيض على قدم المساواة يحكمون على الرجل من خلال شخصيته وليس من خلال لونه.

أعطى الأسقف أمره بقوله:

(إذا كان يجب على الزنجي أن يترأس المفاوضة، يجب أن يتحدث بلطف، حتى لا يخيف المستمعين البيض).

يظهر رد الزنجي روح هؤلاء الفاتحين الأوائل:

(هناك ألف أسود اللون مثلي، بين رفاقنا. أنا وهم مستعدون للقاء ومحاربة مائة من الأعداء معًا. أما نحن، فإننا نعيش فقط للقتال من أجل الله، واتباع أوامره، فلا نهتم بأي شيء من أجل الثروة، طالما أن لدينا مكانًا نبقى فيه ولو جوعى ونكسو أجسادنا. هذه الدنيا لا شيء بالنسبة لنا، وأن الدار الآخرة هو كل شيء!).

تسود روح المقوقس المسيحية حتى يومنا هذا. سمعت مؤخرًا ضابطًا إنجليزيًّا يطرد سائق سيارة أجرة في القاهرة كان قد استجاب لنداء نادي Turf، قائلًا بسخط لصديقه وللحَمَّال:

(لماذا؟ إنه متسول أسود).

بعد سنوات قليلة، منذ أن رفض عدد من طلاب جامعة إدنبرة البريطانية الدعوةَ المنتظمة من الأستاذ لتناول الشاي بعد ظهر يوم الأحد، إذا التحقَ برفقتهم طالب آخر لمجرد أنه كان زنجيًّا. إنه لمن دواعي سروري أن نسجل أن الأستاذ وقف بجانب صديقه الأسود، ليكسب له في النهاية المساواة في المعاملة الاجتماعية. لا ينبغي إغفال حقيقة أن واحدًا فقط من كل ثمانية أشخاص في الإمبراطورية البريطانية من البيض.

من المؤكد أنه في الشرق يجب على المرء أن يذهب إلى هناك ليفهم مبدأ المساواة المطلقة، ومع ذلك؛ أخشى أن الشعبَ الإنجليزيَّ غير قادر بشكل خاص على فهمه، تحت أي ظرف من الظروف. إن طبيعة الخليج التي أُنْشِئَتْ لفصل شعوب الشرق عن الأوروبيين، لم يدركها أو يفهمها المسلمون أبدًا، وأعتقد أنه لهذا السبب يرجع الجزء الأكبر من سوء الفَهم الشخصي الذي يجعل حكمنا صعبًا للغاية في مصر. أما بالنسبة للخليج الذي يجعل التكبر والتمييز الطبقي هو فصل الإنجليز عن بعضهم البعض، فإن هذا لا يزال غير مفهوم للعقل الشرقي.

لقد تحدثتُ مع شيخٍ من أصلٍ عربيٍّ خالص، يشغل الآن منصبًا مرموقًا للغاية في القاهرة، رجل ذو معرفة كبيرة بتاريخ دين الإسلام، طلب مني بلطف شديد أن أشرح مبادئنا المسيحية في مسألة الأخوة؛ لأنه لم يستطع بأي حال من الأحوال فَهمها مما رآه عن الإنجليز في مصر والسودان، مقارنةً بتعليم العهد الجديد.

حُكيت لي هذه القصة من هذا الرجل النبيل الذي لم يروِها بنفسه، ولم يشر إليها، لكنها جاءت من صديق شهير. عندما كان الشيخ يشغل منصب القضاء في السودان، كانت لديه فرصة للسفر من الخرطوم إلى القاهرة بالقطار، وبحوزته تذكرة من الدرجة الأولى، كان جالسًا في أحد الصالونات المكشوفة التي تخضع لحكم سكة حديد ولاية السودان، وعندما دخل رجل إنجليزي يرتدي نظارة أحادية العدسة، بعد التحديق بغير أدب، قرع الجرس، وأبلغ الحارس أنه يعترض على السفر مع رجل من السكان الأصليين للبلد.



سبيل للشرب جذاب وجدتُ في كل شوارع القاهرة

يجب توضيح أن السادة من طبقة الشيوخ يرتدون دائمًا عمامة وأثواب الشرق الطويلة. وعندما طُلب من الشيخ مغادرة الصالون إلى شقته الخاصة (المخصصة للنوم والاستفادة منها في النهار)، رفض ذلك؛ كان لديه تذكرة تعطي له الحق في السفر على هذا الدرجة من القطار. أصبح الإنجليزيُّ الآن غاضبًا، وصار عنيدًا، وبعد الكثير من الجدل، حيث كان يهين الشيخ، وجد أن الطريقة الوحيدة للاستمتاع بعربة من عربات القطار خالية من هذا الشخص الذي اعترض عليه، دفع ثمن ثمين؛ لأنه حجز مقاعد العربة بأكملها لحسابه الشخصي. هل يمكن تصديق أن هذا الرجل دفع ٢٠ بالفعل لغرض إخراج مصري من الصالون العام!

لن يقاس الضرر الناجم عن هذا العمل الوقح أبدًا. إن أشياء مثل هذه تثير غضبًا، وتولِّد عقبات أمام حكمنا في مصر، والتي يكون أولئك الذين يتعين عليهم مواجهتها في حيرة من أمرهم أحيانًا لفهمها.

إن شبح التمييز الطبقي هذه هي بالتأكيد أكبر عائق أمام الحركات التبشيرية في الشرق، كما لاحظ كل مُحَلِّل منصف. كيف، على سبيل المثال، يمكن لأي استئناف آخر أن يقف ضد تلك التي يقدمها المسلم الذي يقول له عند اقترابه من الوثني، مهما كان غامضًا أو منحطًّا:

(اعتنقوا الإيمان، وأنتم متساوون وجميعكم إخوة؛ فلا يعرف الإسلام التمييز على أساس لون البشرة).

هناك إحجام كبير أو عجز عرقي تقريبًا في دعاة الحركات التبشيرية الغربيين للاعتراف بالتمييز الطبقي كعقبة لا يمكن التغلب عليها تقريبًا أمام تقدم المسيحيين في مناطق شاسعة حيث يتواجد الإسلام والمسلمين. يتضح هذا من خلال حقيقة أن السيد سانت كلاير تيسدال Tisdall يمكنه حتى أن يذهب إلى أبعد من المطالبة بالمسيحية، كميزة عليا، هو الترويج الوحيد

لعقيدة الأخوة الإنسانية، متجاهلًا أنه في ظل الإسلام تم بذل الكثير من أجل تفكيك النظام الإقطاعي لأوروبا من خلال عدم قبول أي امتياز أو طبقة في المناطق التي احتلتها.

كل مسلم يعلم كان سلوك النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع نفسه، لدرجة أنه كان من الممكن أن يكون منخرطًا في الحديث مع مجموعة من المواطنين المشهورين في مكة، لدرجة أنه عَبَسَ في وجه رجل أعمى فقير طلب نصيحته. إنهم يعلمون أيضًا أنه طوال حياته أشار إلى الحادث، وأعلن استنكار الله لسلوكه. إن صدى هذه الآية من استنكار الذات موجود في القرءان نفسه، وقد ظلت تطارد مخيلة المسلمين إلى الأبد؛ مما أدى إلى النظر إلى المكفوفين أنهم أكثر رقة وحساسية كقاعدة عامة لهم.

قال الله في القرءان: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾ [1].

إن الفروق الطبقية التي نمتلكها والتي يبلغ عددها ألفًا، وتخلق منا وحوشًا، هي التي أفسدت الشخصية الإنجليزية في كل جزء من العالم، غير مفهومة تمامًا بالنسبة للمسلمين، لماذا نحن كذلك؟! لا يمكنهم، على سبيل المثال، ارتكاب أي شيء مثل الحادث الذي وقع في النادي الرياضي الإنجليزي في القاهرة هذا العام. أخذ بعض الضباط الطيبين عائلة تومي الذين اِسْتُدْعُوا لتكوين فِرَق الهوكي أو فرق أخرى لمنحهم كوبًا من الشاي في الجناح؛ لكنهم سرعان ما واجهوا شكاوى مدنية متعجرفة إلى اللجنة.

---

(١) سورة عبس: من ١ إلى ١١

(اخرج يا تومي حتى تبدأ الطبول بالعزف!).

إن الأَنَفَة التي رأيتها، وجدت عامةً في باشا بعيد عنا، وأنه لم يكن عربيًّا؛ بل تركيًّا توقع أن يُجامَل بسبب منصبه، متحديًا التعليمات القرءانية من خلال ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧﴾ [1] لكنني جلست مع صديق لي، من البهوات الأغنياء، مع بَقَّالِ العائلة وجيرانه، في متجر في الموسكي، في القاهرة، دون أي أثر لأي وعي طبقي. وصديق آخر في القاهرة، وهو باشا من أكثر العائلات تميزًا، ولديه ممتلكات ضخمة، يتحرك وهو سعيد مبتهج بين جميع طبقات الناس. الغباء الذي يقيس منزل الرجل، وراتبه، ومنصب والده، ويقطع نمط الاعتراف ليتناسب تمامًا مع الميزة الذاتية، هذه الأشياء غائبة.



(١) سورة الإسراء: ٣٧

الفصل الخامس

طريق جديد مع المسلمين

«إذا اسْتُخْدِمَتْ الحجج الجائرة ضد إيمان القرءان، فإما أن المسلمين فقدوا كل ذكائهم القوي ... أو قد نتوقع النتيجة بيقين أخلاقي. مما يعلمون أنه خطأ في تعاليم المبشرين المسيحيين، وسوف يجادلون بطبيعة الحال بأن ما يعرفونه ليس خطأ أيضًا. من تقديرنا الخاطئ للمحمدية في تأثيراتها المدنية والفكرية، قد يستنتجون، دون مزيد من الدراسة، زيف تقديرنا لمزاعم دينهم الروحية. وبهذه الطريقة قد يُمنع كل باب من قبول الاقتناع، قبل أن تسمع الحقائق المنقذة للإنجيل في آذانهم».

فورستر؛ تشارلز فارار، **كشف اللثام عن المُحَمَّدِيَّة**، المجلد الثاني. ص ٣٧٧.

إن وجود مثل هذا العدد الهائل من الناس مثل المسلمين (يقدر في الوقت الحاضر حوالي ٢٦٠,٠٠٠,٠٠٠ منهم في العالم)، كلهم دين واحد، والاعتراف بسلطة خليفة واحد، أمر ضروري دائمًا انتباه أي رجل يحلم بالسلطة في السياسة العالمية.

كانت هناك فترة فُتِنَ فيها نابليون بونابرت بالتأمل في الإسلام. وعندما كان في مصر، ذهب للصلاة في المساجد مرتديًا ملابس عربية، وكان يناقش باهتمام شديد في جميع الأمور الدينية مع الشيوخ الأذكياء. وقد سعى بعدة طرق التوفيق بين علماء الأزهر الأكابر في القاهرة، وجمعهم من حوله، وأخذ مشورتهم في جميع المناسبات، عندما تسمح الظروف بذلك. عندما بدأت قواته في التوجه إلى مصر، حثهم على واجب إظهار الاحترام الأكبر للقرءان والمساجد وعلماء الأزهر وفقهائه. في الواقع، قيل إنه كان يفكر بجدية في أن يصبح مسلمًا.

قال نابليون في إعلانه بالقاهرة:

(الفرنسيون هم المسلمون الحقيقيون. أصبحنا مسيحيون أفضل من ذي قبل بأن نصبح مسلمين. وبالتحالف السياسي بين فرنسا والإسلام نخلق قوة عسكرية يجب أن يعتمد عليها العالم، وبالتحالف الديني بين الإنجيل والقرءان سنعمل على تسليط مثل هذا النور على أرواح الرجال كما لم يروا بعد).

إذا بدا أن هذا يستمتع إلى حد ما بالفترات المبهرجة للانتهازي السياسي، فقد نتذكر أنه عندما سيطر اليأس من سانتا هيلانا آرائها صراحة، كان نابليون لا يزال في كثير من الأحيان يعرب عن تعاطفه مع الإسلام، وتحدث عن العديد من مبادئه بالثناء. لم يتردد السيد كارل بيترز في أن يوعظ الشعب الألماني بأهمية محاولة تنمية صداقة مع الإسلام، على أمل أن يستخدم يومًا ما قوته لمساعدة الطموحات الحديثة لوطنهم الأم.

يظهر تاريخ المشروع الألماني في مصر خلال السنوات القليلة الماضية أن هذه ليست مجرد كلمات. كان السيد كارل بيترز في القاهرة هذا الشتاء (١٩١٢)، وأثبت أنه لم يخفف شيئًا من الصراحة الوقحة التي تميز اقتراحه الرهيب بإخراج الديناميت من الإسلام لتفجير حكم إنجلترا وفرنسا في الهواء من كيب نون المغربية إلى كالكوتا الهندية.

قد يبدو أنه من غير الضروري التأكيد على أهمية الدراسة المتأنية للإسلام على الشعب البريطاني، الذي ينتمي في إمبراطوريته إلى هذا الدين أكثر من الانتماء إلى أي قوة أخرى في الهند وحدها نحكم ٦٥,٠٠٠,٠٠٠ مسلم. لكن يجب مواجهة الحقيقة، وهي أن جهلنا بهذا الموضوع لا يقل عن كونه مروعًا، ولا يتم فعل سوى القليل نسبيًّا لتقليله من جانب أولئك الذين أُرْسِلُوا لحكم هؤلاء الناس، أو حتى من جانب أولئك الذين يذهبون إليهم بإنجيل السيد المسيح. يبدو أننا نحمل معنا كراهية مبدأية للشعوب الشرقية، مما يجعل التعاطف شبه مستحيل، بينما تقودنا مفاهيمنا المسبقة إلى إساءة الحكم عليهم في كل شيء تقريبًا.

يستخدم جون راسكن John Ruskin بعض الكلمات الرائعة للغاية، والتي قد يتم التفكير فيها في هذا الصدد. لقد تأكدَ الأمر على أن الناس في الشرق يظهرون بمئات الطرق الحقيقة العظيمة لإيمانهم بالله. مع الغرب، على العكس من ذلك، فإن الشكل الخارجي لممارسة الإيمان بالله، هو شيء نخجل منه إلى حد ما لإخفاء اختلاف عميق بين الشرق والغرب تحت عدم توافق المزاج من جانب العصر الحديث. يقبل الإنجليز العادة الدينية للفكر في الشرق. أول قانون في الشرق هو الصلاة إلى الله، وسواء كان الضريح المبارك أو مكة أو لاسا الصينية، فإن حرمة العبادة تحيط بأتباع الدين وتحمي الحاج. كل صلاة هي مقدسة في نظر الشرقي، مهما كانت في العقيدة أو في الشكل. لا يعقل بالنسبة له أن يظهر ازدراء لأي رجل عند رؤية أي رجل آخر مهما كان منسجمًا في الصلاة.

في هذه الحياة يأتي الرجل الإنجليزي، الذي غالبًا ما يفتقر إلى لمسة واحدة من شفقة من صلوات أي شعب، أو عقيدة أي دين؛ ومن ثم فإن حكمنا في الشرق قد استقر. لم نتجاوز قط مرحلة الغزو، ولم نستوعب قط أي شعب في أساليب حُكمنا. يكاد يبدو أن الصفات التي تجعل الأنجلوساكسوني ناجحًا في إخضاع القسوة، وكسر الاعتزاز بالنفس التي يمكن أن تنفره من المهمة الدقيقة والحساسة المتمثلة في استيعاب الأجناس الخاضعة، وكسب ثقتهم وعاطفتهم. ومن المثير للفضول، على سبيل المثال، كم هي عدد المرات التي يتحدث فيها بريطاني بحُسْنِ النية عن كنيسة أو معبد أو مسجد أجنبي؟

بدا غريبًا بالنسبة لي – في البداية – عندما غادرتُ الفندق في واحة الصحراء، أن أجد أصدقائي البسطاء، الذين كانوا يجلسون على الحصائر بجوار باب المنزل، لم ينهضوا عندما تحدثت إليهم. كان يجب أن أمر المتسولين بالوقوف. لكن مع الصبر، سرعان ما اكتشفت أنهم ظلوا جالسين لأنهم لم يتوقعوا مني بأني رجل متعجرف يتطلب رجلًا فقيرًا أن ينهض على

نهجه. والنبي صلى الله عليه وآله وسلم ما كان يفعل مثل هذا الشيء. في الفنادق بمصر، لدى الخدم تعليمات دائمًا للوقوف عند ظهور الأوروبي. لقد سمعتُ أن امرأةً إنجليزيةً تصنف خادمها العربي على نحو سليم على أنها تنسى لحظات في هذا الأمر. كما أنني استمعت إلى الآراء الخاصة للمواطنين، حديثي العهد في المجتمعات الإسلامية البدائية، حول موضوع العادات الأوروبية.

إن ترتيب القرءان نفسه هو مثال على هذه الإيجابيات، حيث وُضِعَتْ السور الطويلة أولًا، وهي تتدرج تدريجيًّا إلى أقصر السور، على الرغم من أن أطول السور كانت في كل حالة تقريبًا آخر ما تمت كتابته، والأقصر هي التي كتبت أولًا. لم يدرك أحد تمامًا، كما هو في وجهة نظري، سوء الفَهم والارتباك اللذين جلبتهما هذه المسألة الصغيرة على ما يبدو إلى الأذهان الأوروبية. نظرة واحدة على ترتيب سور القرءان، وهو الترجمة التي قرأها كارلايل، ويفهم المرء لماذا وجدها (مرهقة، ومختلطة، وفظة، وغير مضطربة). في ترتيب رودويل أجد القرءان ممتعًا بشكل مستمر.

وهكذا إلى ما لا نهاية. ما آمل هو أن يكون واضحًا، كم هو مستحيل بالنسبة للأوروبيين أن ينظروا إلى العالم بنفس عيون الشرق. وبالاستناد إلى نفس المقدمات، سيصل دائمًا إلى استنتاجات معاكسة تمامًا؛ والتي تُظهر جميعًا مدى العناية التي يجب ممارستها قبل أن ننتقد الأشياء وخاصة الأشياء الدينية في الشرق، مع استخلاص الحجج من التجربة الإنجليزية لتطبيقها على الأحوال التي لا تسمح بتطبيق أي منطق من هذا القبيل دون مؤهلات كبيرة. وكم هو أكثر من غباء أن نعطي أي عذر للشرقي الذكي ليقول عنا:

(إنه ينظر إلى كل شيء بازدراء لكونه غير أوروبي، أو على وجه الخصوص، غير إنجليزي).

تمامًا كما كان على أهل الغرب في العصور الوسطى أن يتعلموا مقدار ما خدعهم من الإساءات البشعة التي تعرض لها المسلمون من جانب البابوات وغيرهم ممن كانوا مهتمين بإثارة الحماسة المتعصبة للحروب الصليبية والمؤرخين المعتمدين. بدأ في إسقاط تلك التهم المبتذلة؛ لذلك – أعتقد – أن الوقت قد حان، إذا لم نفشل تمامًا في فرصتنا لمساعدة هؤلاء الملايين من رفقائنا الرجال، عندما يتعين علينا أيضًا أن نتقدم إلى ما وراء الأحكام المسبقة الجاهلة للقرن الثامن عشر، والتي لا تزال تحد من حكم معظم الإنجليز.

اعتقد فيليب ملانكتون Philip Melanchthon أن محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم كان يُوحِي إليه الشيطان، وأن:

(طائفته كلها تتكون من مجموعة من الكَذَبَة والسرقة والشهوات المخزية)، أما القرءان:

(فلا يهمنا أكثر من أعجوبة المصريين الذين استدعوا الثعابين والقطط!).

لكن في النهاية، أفسحت هذه الأشياء والشتائم السخيفة لرجال مثل بريدو وسبانهايم وديربيلوت الطريق خطوة بخطوة تقريبًا إلى احتجاجات أكثر اعتدالًا، وأسماء أكثر لائقة، وتحريفات أقل فظاعة لكل من العقيدة ومؤسسها؛ حتى غوته وكارلايل من ناحية، والمجموعة الحديثة للمحققين سبرينجر وعماري ونولديك وموير ودوزي من ناحية أخرى، أعطوا العالم بأسره فرصة معرفة أن:

(المحمدية – أي الإسلام – هي شيء حيوي محفوف بالحيوية. وأن محمدًا مهما كانت وجهة نظره في شخصيته، فقد احتل مكانًا في الكتاب الذهبي للإنسانية).



واحدة من أقدم مدارس تعليم القرءان الكريم
(الكُتَّاب)

أنا متأكد من أننا لن نخسر شيئًا من الناحية الفكرية من خلال الحرص على تحقيق العدالة التاريخية للشعب العربي. لا بُدَّ أننا نرغب في الصراحة، إذا لم نعترف بأن دين الإسلام قد حقق تقدمًا كبيرًا للوثنيين والمتحاربين الذين استقبلوه أولًا؛ ولا جدال في الدين الذي ندين به للشرق الإسلامي للحفاظ على نور المعرفة بينما كانت المسيحية في (عصورها المظلمة).

ونعترف بأن للدين أساسه في حقيقة الأشياء، وأن جميع الديانات الكبرى قد أثبتت نعمة للشعوب التي نشأت فيما بينها، مما يمثل مرحلة في تاريخهم. لكل منها قائمة مزدحمة بأسماء القديسين والشهداء والصالحين، يُحَدَّدون عن طريق أنصارهم ومؤيديهم بأوصاف عظيمة، وهي إهانة لا تغتفر مثل إهانة الأنبياء أو الرسل العبرانيين، أو حتى مؤسس الإيمان المسيحي، يمكن أن تكون إهانة للمسيحيين. وقد أثبتت هذه الديانات أنها ثابتة ومناسبة تمامًا للاحتياجات الروحية للإنسان على نطاق واسع، بحيث يجب أن تفرض الاحترام. إذا استطعنا أن نضيف إلى الاحترام: والعدالة، والنزاهة، وحب البشرية، بما يكفي لإزالة كل آثار الازدراء أو الحكم المنافق، فقد نأمل في التقدم إذا كان هدفنا هو التقدم الحقيقي، وليس مجرد التبشير.

ليس هناك حاجة للإحباط؛ لأن الحركات المسيحية التبشيرية يبدو أنها فشلت. كان لدى الفريسيين هذا النوع من الحماسة، وما فكر به يسوع عنهم وعن حماسهم نتعلمه من كلماته:

(أيها البوصلة بالبحر والأرض لتجعل المرء يهتدي، وعندما يصبح كذلك، تجعله ابنًا للجحيم مضاعفًا. من أنفسكم).

لقد قال الدكتور غرانت حقًّا:

(التبشير يفصل الأفراد الذين لا قيمة لهم كقاعدة عامة، ولكنه يوقف التطور الداخلي. والنبوة هي التي تكسب الأفراد، ويصبحون مراكز قوة، وبالتالي فهي تطلق حركات [تبشيرية] قد تتأخر أو تنهزم، لكن لا يمكن أن تُدَمَّر).

(٢٦ وَصَنَعَ مِنْ دَمٍ وَاحِدٍ كُلَّ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ يَسْكُنُونَ عَلَى كُلِّ وَجْهِ الأَرْضِ ...) [١]

إن الرسالة المسيحية، وكل الروعة الأخلاقية التي أتت بسبب تقدمها، لا تحتاج، إعداد لاكتسابها، إلى أي شيء من الإساءة أو التقليل من شأن محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو دينه، أو في الواقع تجاه أي دين. هذه الأشياء تشغل وقتنا بشكل غير مربح وتعيق تقدمنا. عملنا هو أن نكون مسيحيين على نهج اليسوع المسيح البسيط غير المُتَكَلَّف، ثم نقول للرجال ذوي المعتقدات الأخرى: هنا يسوع، ما رأيكم به؟ (أكثر الرجال الجادين سيقتربون تدريجيًّا من المسيحية ويقتربون منها، وستأتي النهاية تدريجيًّا، وبشكل غير محسوس تقريبًا، والظلام يتلاشى إلى الشفق، والشفق يتلاشى في كامل مجد فجر شمس الطهارة والإنصاف والصلاح).



(١) الكتاب المقدس – العهد الجديد – أعمال الرسل: ٢٦.



قائمة المصادر والمراجع

١. القرءان الكريم.

٢. الكتاب المقدس: كتب العهد القديم والعهد الجديد، الإصدار العاشر، ط ٦ (القاهرة: دار الكتاب المقدس، ٢٠١٥).

٣. البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، (المنصورة: مكتبة فياض للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١١).

٤. مسلم، الحجاج بن مسلم النيسابوري، **صحيح مسلم**، جمعَ جوامعِ الأحاديثِ والأسانيدِ وَمَكْنِزَ الصحاحِ والسننِ والمسانيدِ، جمعية المكنز الإسلامي.

٥. أبو داود، سليمان بن الأشعث، **سنن أبي داود**، جمعَ جوامعِ الأحاديثِ والأسانيدِ وَمَكْنِزَ الصحاحِ والسننِ والمسانيدِ، جمعية المكنز الإسلامي.

٦. الترمذي، أبو عيسى محمد، **سنن الترمذي**، جمعَ جوامعِ الأحاديثِ والأسانيدِ وَمَكْنِزَ الصحاحِ والسننِ والمسانيدِ، جمعية المكنز الإسلامي.

٧. ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد، **سنن ابن ماجة**، جمعَ جوامعِ الأحاديثِ والأسانيدِ وَمَكْنِزَ الصحاحِ والسننِ والمسانيدِ، جمعية المكنز الإسلامي.

٨. مالك، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك، **موطأ مالك**، جمعَ جوامعِ الأحاديثِ والأسانيدِ وَمَكْنِزَ الصحاحِ والسننِ والمسانيدِ، جمعية المكنز الإسلامي.

٩. ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد، **مسند الإمام أحمد**، جمعَ جوامعِ الأحاديثِ والأسانيدِ وَمَكْنِزَ الصحاحِ والسننِ والمسانيدِ، جمعية المكنز الإسلامي.

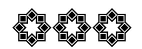
١٠. الدارمي، أبو محمد عبد الله، **سنن الدارمي**، جمعَ جوامعِ الأحاديثِ والأسانيدِ وَمَكْنِزَ الصحاحِ والسننِ والمسانيدِ، جمعية المكنز الإسلامي.

١١. الغزَّالي، أبو حامد محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين**، (ويذيله كتاب "المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار" للعلَّامة الحافِظ العراقي)، (وملحق به "تعريف الأحياء بفضائل الإحياء" للعلَّامة عبد القادر العيدروس باعلوي، "الإملاء عن إشكالات الإحياء" للإمام الغزَّالي)، د.ط، ج ١، ج ٢، ج ٣، ج ٤، ج ٥ (القاهرة: دار التوفيقية للتراث، ٢٠١٥).

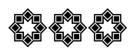
١٢. محمد مارماديوك بيكثال، **الجانب الثقافي في الإسلام**، محمد مصطفى الساكت، دار زحمة كُتَّاب للنشر والتوزيع، ٢٠٢١.

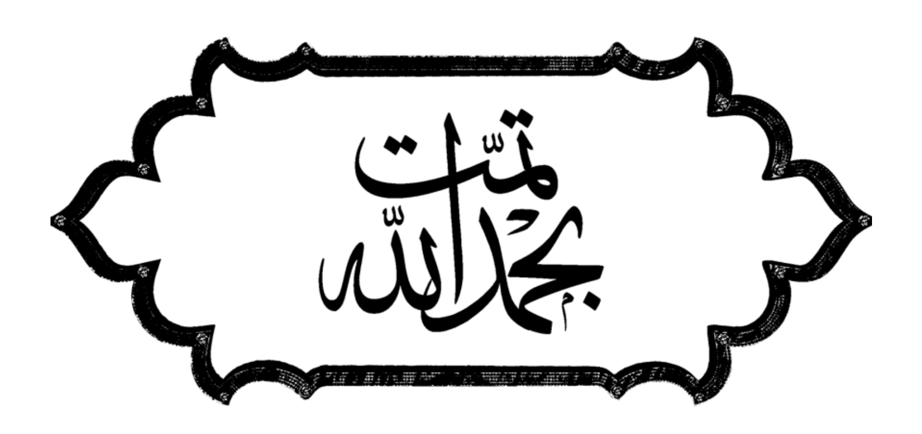
١٣. ألفريد جوشوا بتلر، **فتح العرب لمصر**، محمد فريد أبو الحديد بك، مكتبة مدبولي بالقاهرة، ١٩٩٦.

14. Field, Claud, *Mystics and Saints of Islam*.



فهرس المحتويات




تمت بحمد الله